ميخائيل نعيمة

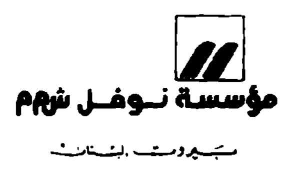
أبعد من موسكو ومن واشنطن

Twitter: @abdullah1994
27.2.2018

مؤسسة نوفل

ميخائيل نعيمة

أبعد من موسكو ومن واشنطن



مؤسسة نوفل ش.م.م
بيروت. لبنان

الطبعة الخامسة

١٩٨٨



مقدمة

أوحت إليّ هذا الكتاب زيارة قمت بها في صيف ١٩٥٦ إلى الاتحاد السوفياتي بدعوة من اتحاد الكتّاب في موسكو . فلبّيتها وبي شوق إلى الاطلاع عن كثب على مدى الانقلاب الذي أحدثته الثورة في حياة بلاد عرفتها لأوّل مرّة منذ نصف قرن وما زلت أذكرها بالخير .

أمّا قصدي من الكتاب فليس أن أضيف مجلّداً جديداً إلى المكتبة الضخمة التي ألّفها الكتّاب حتى اليوم في شتّى البلدان ، وبشتّى الألسن ، ولشتّى الغايات حول البلاد التي انتهجت لحياتها نهجاً جديداً وغريباً في الأرض . فلن يجد القارىء في كتابي وصفاً لذلك النّهج ، وتفصيلاً لحسناته وسيّئاته . لا ولا إحصاءات لما أنجز من أعمال في مختلف المرافق ما بين اقتصاديّة واجتماعيّة وزراعيّة وصناعيّة وثقافيّة وسياسيّة وغيرها . فغيري مؤهل لأن يحدثه عن هذه الأمور خيراً مني .

إلاّ أنّني رجل يؤمن أعمق الإيمان بالإنسان وعبقريته التي

بغير حدود ؛ ويؤمن بالنظام السرمدي الذي من وراء الإنسان وعبقريته ، ومن وراء كلّ منظور وغير منظور في الكون . ويؤلمه أشدّ الألم أن يرى ذلك الإنسان يغرق اليوم حتى أذنيه في رغوة من المماحكات حول أيّهما الأفضل : الرأسماليّة أم الشيوعيّة ؟ ثمّ أن تثير هذه المماحكات أخسّ ما فيه من شهوات . فينسى أنّه إنسان وأنّه معدّ لتاج الألوهة . ويمضي ، وقد أعمته شهواته ، في حشد قواه الهائلة لا للقضاء على الجهل الذي هو عدوّه الأوحد والألدّ . بل للقضاء على نفسه ، وعلى عبقريته ، وعلى المستقبل الباهر الذي لا بدّ أن يتمخّض عنه الزمان إذا لم يفقد الإنسان رشده .

وممّا يزيد في ألمي أن البلدين اللذين يثيران الجانب الأعظم من تلك الرغوة هما البلدان اللذان تربطني بهما أوثق الصلات ، كما هو مبيّن في بعض الفصول ، واللذان يملكان من القوّة والحيويّة ما لو تعاونا في استخدامه لخير الإنسانيّة لدفعا بها أشواطاً بعيدة نحو الصلاح والفلاح . وهذا الألم الذي أحسّه ، والآلام التي يعانيها العالم من حواليّ كانت الحافز الأوّل والأهمّ لوضع هذا الكتاب . فقد حاولت أن أخرج بما يدعونه « نضالاً » بين الرأسماليّة والشيوعيّة من إطاره الضيّق إلى إطاره الأوسع حيث تبدو الرأسماليّة والشيوعيّة موجتين لا أكثر من أمواج الخضمّ البشري ، وحيث ستعقب الموجتين

موجات وموجات . فما من مبرّر على الإطلاق لهذا القلق ، وهذه « الهستيريا » . وهذا الاستعداد الجنوني للحرب . ومتى كان الخضمّ البشري وقفاً على هذه الدولة أو تلك تسيّره حسب هواها ، فتقول لتلك الموجة ارتفعي فترتفع ، ولهذه انخفضي فتنخفض ؟ أو تأمر الخضمّ بألاّ يموج ويزبد، فلا يموج ويزبد ؟

والذي أرجوه من القارىء هو أن يطالع هذا الكتاب بعينين مجرّدتين عن الهوى . على قدر ما يستطيع التجرّد عن الهوى . ثمّ أن لا يحاول « تصنيفي » في هذا المعسكر أو ذاك . فالمعسكر الوحيد الذي أنتمي إليه هو معسكر الإنسان التوّاق إلى فهم النظام السرمدي لينعتق به من ربقة الجهل وكلّ ما يولّده الجهل من قلق وخوف وبغض وتنافر بين النّاس . وهذا المعسكر لا يرغي ، ولا يزبد ، ولا يقرع الطبول . لأنّه يؤمن أعمق الإيمان بأنّ الإنسان أخٌ للإنسان أينما كان ، ومن أيما لون أو عقيدة أو لسانٍ كان ؛ وبأن الأخوّة تقضي بالتعاون لا بالتنابذ ، وبالتشاور لا بالتناحر ، وبالتّصافي لا بالتّجافي . فمن أنصف أخاه أنصفَ نفسه . ومن ظلم أخاه ما ظلم غير نفسه . ومن استباح دم أخيه أباح دمه لإبليس . و « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها » .

م . ن .

بسكنتا ٢٦ شباط ١٩٥٧

أبعد من موسكو ومن واشنطن

تتقاذف البشريّة في هذه الأيّام تيارات بغير عدّ ، أبرزها وأعنفها اثنان : الشيوعيّة ، وتتزعّمها موسكو ، والرأسماليّة ، وتتزعّمها واشنطن . وهذان التيّاران يبدوان كما لو كانا يسيران في اتجاهين متعاكسين ، وما من أمل على الإطلاق في أن يلتقيا ويمتزجا في أيّ مكان أو زمان . أو هكذا تحاول الدعاوات من الجانبين أن تصوّرهما . ولقد نجحت المحاولة إلى حدّ أن العالم بات منقسماً إلى معسكرين لا يجمع بينهما شيء إلاّ الكره والحذر والاستعداد المحموم للانقضاض واحدهما على الآخر . وكلا المعسكرين يكيل الشتائم لنقيضه بغير حساب ويعزو إليه كلّ ما في الأرض من قلق وذعر وظلم وفقر وجهل إلى آخر ما هنالك من آفات وأوجاع رافقت الإنسان منذ أن وعى نفسه كإنسان .

إن ما ينفقه المعسكران من المال في سبيل التسلّح ؛ ومن الحبر والورق والكلام في سبيل تشنيع واحدهما الآخر وتشهيره ،

وتوسيع الشقة الفاصلة بينهما ، وزرعها بأشواك الخوف ، وحراب الكراهية ، وفخاخ النقمة ، لمّا ترتعد لفداحته أكثر القلوب شجاعة ، وتصطكّ لهوله أشدّ الركاب صلابة ، وترتدّ عن إحصائه أوسع الأدمغة معرفة بالأرقام . ولو أنّه — أو بعضه — أُنفق في سبيل إطعام الجياع ، وكسو العراة ، وتعليم الجهلة ، وتطبيب المرضى ، وتقريب القلوب بعضها من بعض لما بقي في النّاس جائع وعريان وجاهل ، ولا قلوب تتأكلها الشحناء والبغضاء وتعبث بها نزوات يخجل حتّى الحيوان من أن تُنسب إليه .

لقد كان من هذه الدعاوات المسمومة تنفثها آلاف الأقلام والأفواه في كلّ ساعة من ساعات اللّيل والنّهار أن أصبح مَن لا يؤخذ بها وكأنّه غريب عن العائلة البشريّة . وبات مَن يقول كلمة خير في الاتحاد السوفياتي كأنّه يقول كلمة سوء في الولايات المتحدة . ومن يمدح الولايات المتحدة في أمر من الأمور كأنّه يذمّ الاتحاد السوفياتي في ذلك الأمر عينه . وهذا يعني أنّه بات على العاقل أن يتخلّى عن عقله ؛ وعلى مَن ميزانه بكفتين أن ينبذ إحداهما ؛ وعلى من له عينان أن يكون أعور ، فلا ينظر إلاّ بعين واحدة وفي اتجاه واحد .

ثمّ كان من هذه الدعاوات الخبيثة أنّها ، بما أثارته من رغوة عارمة في كلّ مكان ، أفسدت قلوب النّاس وأفكارهم

– حتى العقلاء منهم . فباتوا ومشاعرهم وأحكامهم « تُفبرَك » لهم كما تفبرك أحذيتهم وأكسيتهم سواء بسواء ؛ وباتوا يؤمنون أعمق الإيمان بأن خلاصهم ممّا هم فيه من قلق وانزعاج إنّما يأتيهم من انتصار التيّار المنساقين به على التيّار المعاكس له . ناسين أن القلق هو الصفة الأولى الملازمة للإنسان منذ أن كان ؛ وأنّه المهماز الذي يدفع بالنّاس دائماً أبداً من تيّار إلى تيّار ؛ وأن لا نهاية لهذه التيّارات إلاّ بنهاية القلق الذي يبعثها بغير انقطاع ؛ ولا نهاية للقلق إلا بنهاية الأسباب التي تخلقه .

فما هو القلق ؟ وما هي أسبابه ؟

القلق هو شعورنا بالانزعاج من حالة نحن فيها . وهذا القلق يولّد فينا الشوق إلى التخلّص ممّا يزعجنا . والشوق ، بدوره ، يولّد تيّاراً من الفكر والحركة . فحيثما كان القلق كان الشوق . وحيثما كان الشوق كانت الحركة . وهكذا فالقلق والشوق والحركة هي الثالوث غير المنفصل الذي به وعليه تقوم حياتنا .

أمّا أسباب القلق ، وإن بدت كثيرة ومتنوّعة ما بين جسدانيّة وعقلانيّة ووجدانيّة ، فمردّها إلى واحد . وهو انزعاجنا من أن يكون في حياتنا أي شيء لا نستطيع أن نتحكّم فيه تحكّماً كاملاً فنسيّره حسبما نشتهي . فكيف بنا وفي

الأرض والسماء ربوات ربوات الأشياء والحالات الّتي ما تزال تتحكّم فينا ولا سلطان لنا عليها ؟ وهل في استطاعتنا أن نتحكّم في شيء نجهله ونجهل طبيعته ؟ وإذن فالينبوع الأوّل والأخير للقلق وما يلازمه من شوق وحركة هو جهلنا للقوى الّتي تتحكّم فينا ولكيفيّة التحكّم فيها أو ، في الأقل ، لكيفيّة تفهّمها ومسايرتها عن رضى منّا وعن محبة وطواعية . وبعبارة أخرى ، إنّه جهلنا للغرض من وجودنا ، وللغاية الّتي من أجلها كان القلق ، وكان الشوق ، وكانت الحركة .

ليس يقلقنا البرد ما دمنا في مساكن تتوافر فيها جميع أسباب التدفئة . ويقلقنا إذا هبّت علينا عاصفة ثلجيّة في بريّة ، واشتدّ زمهريرها ، وما من بصيص نار أو نور على مدى أميال وأميال . ولا يقلقنا الجوع ونحن في بيوتنا ، في معاجننا خبز ، وعلى النّار قِدر يُطهى فيها غداؤنا أو عشاؤنا . ويقلقنا إذا نفد زادنا في مفازة لا نبصر لها نهاية . ولا تقلقنا العتمة ما دمنا واثقين من أن في متناول يدنا زرّاً نضغط عليه فيغمرنا بالنور . وتقلقنا إذا أدركتنا ونحن نسير في قعر وادٍ مليء بالصخور والمزالق ، أو في غابة كثيفة سكّانها السباع والأفاعي ، وليس في جيبنا عود ثقاب ، ولا في قبضتنا عصا .

أجل . إنّه الجهل يولّد فينا القلق ممّا نجهل . والقلق يولّد الشوق . والشوق يبعث فينا تيّار الفكر والحركة . أمّا

الغاية من هذه كلّها فهي الوصول بنا إلى المعرفة التي تمكّننا من التسلّط على ما نجهل . وإذ ذاك فلا نهاية لتيّاراتنا حتى لا يبقى فينا وفي سائر الأكوان من حولنا ما نجهل طبيعته وكنهه ، أو حتى نبلغ المعرفة الكاملة التي إليها تنتهي وفيها تضيع جميع التيّارات البشريّة مثلما تنتهي الجداول والأنهار إلى البحر وتضيع فيه. وذلك لن يتم لنا في مدى حضارة واحدة ، أو دورة واحدة من دورات الزمان . فما أجهلنا نتمسّك بتلك الحضارة أو هذه تمسُّك الغريق بخشبة أو بقشّة . إذ ما من حضارة إلاّ كانت تمهيداً لحضارة أخرى . ثمّ ما أجهلنا نقاوم تيّاراً بتيّار . وتيّاراتنا ، مهما تكن أنواعها وألوانها واتجاهاتها ، هي نتيجة طبيعيّة وحتميّة لما نحسّه من قلق وشوق . فهي تنبع منّا وفينا — عن وعي وعن غير وعي . وهي تتلاحق وتتشابك ، فآناً تتقاطع في سيرها ، وآونةً تتمازج ، وأخرى تتباعد . حتى ليتعذّر علينا القول أين يبتدىء أيّ منها وأين ينتهي . بل إن أيّاً منها لا ينتهي ما دام موصولاً بما قبله وبما بعده ، وما دام النّاس يفتّشون عن المعرفة التي ذكرت .

لعلّ لنا في حكاية آدم وحوّاء و « شجرة معرفة الخير والشر » و « شجرة الحياة » أبرع رمز لولادة القلق والشوق في الإنسان : القلق ممّا يجهل ، والشوق إلى معرفته . فما إن

قال الربّ الإله للإنسان الأوّل : « من جميع شجر الجنّة تأكل . وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها . فإنّك يوم تأكل منها تموت موتاً » حتّى شعر الإنسان بالقلق من وجود شيء حُرّمت عليه معرفتُه . وللحال تنبّه فيه الشوق إلى معرفته . وهذا الشوق راح يقضّ عليه مضجعه ، ويلهب قلبه وفكره إلى حدّ أنّه لم يطق معاندته . فآثر أن يعرف ويموت على أن يبقى جاهلاً ويحيا . وهكذا أكل من الشجرة المحرّمة . وها هي ذرّيّته ما تزال تأكل من تلك الشجرة مسوقة بعين القلق وعين الشوق إلى المعرفة . وذانك القلق والشوق يخلقان فيها تيّاراً تلو تيّار من الأفكار والعواطف والحركة . ولن يكون لتلك التيّارات نهاية حتّى يبلو الإنسان كلّ أصناف الخير والشرّ ، فيزهد بشجرتهما ، ويرتدّ عنها إلى « شجرة الحياة » التي هي المعرفة الكاملة . والتي إذا تذوّق ثمارها بات أقوى من الموت وفوق الخير والشرّ .

هكذا تتوالد التيّارات البشريّة بغير انقطاع . فتبدو لنا كما لو كانت بنت ساعتها ، ويبدو الكثير منها كما لو كان يصارع بعضه بعضاً حتّى تكون الغلبة لواحد على الكلّ . وذلك ما ينفيه الواقع . فالواقع هو أن جميع تيّاراتنا تعود في الزمان إلى القلق الأوّل الذي شعر به الإنسان في فجر حياته من أُمور يجهلها في نفسه وفي الأكوان من حوله . وإنّها ، وإن تعدّدت

مظاهرها وتنوّعت ألوانها ، تشكّل تيّاراً واحداً لأنّها ترمي إلى غرض واحد . وذلك الغرض هو المعرفة الّتي بها لا بغيرها يستطيع الإنسان أن يسيطر على نفسه وعلى الأكوان الّتي من حوله سيطرة لا تترك مجالاً لأيّ قلق . أمّا أن نجاري هذه التيّارات أو نقاومها لأنّها تساير أو تعاكس رغباتنا القوميّة ، أو نظمنا الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة وسواها ، فذلك هو الجهل بعينه . إذ ان الغاية الّتي تهدف إليها هذه التيّارات ليست تدعيم قوميّة ضدّ قوميّة ، أو نظام ضدّ نظام . بل هي صهر القوميّات جميعها في إنسانيّة واحدة تتسامى فوق القوميات ، وردّ جميع النظم البشريّة إلى نظام واحد هو نظام الإنسان المتشوّق إلى المعرفة والمجهّز بكلّ ما يحتاجه من قوى وسلاح للوصول إلى تلك المعرفة .

جرّدوا التاريخ ممّا فيه من سفاسف وترّهات تجدوه سجلاً حافلاً بالقلق الذي يقذف بالنّاس في شتّى التيّارات تفتيشاً عن الراحة والاستقرار . ولأن الراحة والاستقرار لا يكونان إلاّ بالمعرفة فتلاحُق التيّارات البشريّة وتشابكها إنّما يعني أن الإنسان ما يزال بعيداً عن المعرفة ، وبالتالي عن الراحة والاستقرار . فحريّ به ، بدلاً من أن ينتابه الذّعر عند ولادة أيّ تيّار ، أن يبصر فيه دليلاً جديداً على حيويته ، وبشيراً بأنّه ما حاد عن الطريق المؤدي إلى المعرفة الّتي ينشد ،

وهو طريق طويل وشائك من غير شك . أمّا يوم تنقطع تيّاراته وهو من الجهل حيث هو ، فذلك نذير له بأن حيويته إلى نفاد ، وأن الطريق الذي يسير فيه نهايته إلى العدم .

ليس من يجهل أن التاريخ — تاريخنا — سجلّ أبتر ، مشوّه الخطوط والقسمات . لأنّ فصوله الأولى ما تزال مغلّفة بالأسرار التي عجزت عن كشفها الحفريات نقوم بها هنا وهناك . وكلّ ما نقوله فيها لا يخرج عن الأقاويل والتكهنات . فنحن لا نعرف حتى الآن كيف تكوّنت الأرض ، وفي أيّ دورة من دورات الزمان أصبحت صالحة لسكنانا . مثلما لا نعرف كيف كنّا يوم سكنّاها ، ولا التقلّبات التي طرأت عليها منذ أن سكنّاها . والذي ندعوه تاريخاً بمعناه المألوف ليس أكثر من مجموعة أحداث مشوّهة التقطناها كيفما اتّفق وربطناها بعضها ببعض ، ثمّ رحنا نفسّرها على هوانا من غير أن ندرك الروابط الخفيّة بينها — روابط الأسباب والنتائج . والأسباب ، كما نعلم ، سلسلة مُحكمة الحلقات . ومثلها النتائج المترتبة عليها . فإذا أضفنا إلى ذلك ان الأسباب أبداً تغدو نتائج ، والنتائج أسباباً ، وذلك بغير انقطاع وبطريقة تكاد تكون أوتوماتيكيّة ، تبيّن لنا مقدار الخطإ في تفسيرنا للتاريخ ما دمنا نجهل الأسباب الأولى التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه من نتائج .

والآن أعود إلى تيّار الرأسماليّة وتيّار الشيوعيّة لأقول إن كليهما نتيجة حتميّة لأسباب بعضها سحيق في القِدَم ، فلا وصول إليه بمداركنا الحالية . وبعضها قريب منّا ولكنّنا لا نستطيع فهمه والتسلّط عليه لأنّه يرتبط أوثق الارتباط بالأسباب السحيقة التي لا نفاذ إليها بأبصارنا وبصائرنا . إلاّ أنّنا إذا جهلنا الأسباب فأقلّ ما يترتّب علينا ألاّ نتهرّب من النتائج ، وألاّ نتنكّر لها كما لو كانت غريبة عنّا ، ولا ضلع لنا فيها على الإطلاق . ولو كنّا براء منها لما التصقت بنا وباتت عنصراً من عناصر حياتنا . فقانون الجذب والدفع يسري علينا سريانه على الأجرام السماويّة في أفلاكها . ومعنى ذلك أنّنا نجذب إلينا نتائج بعينها لأن أسبابها انطلقت من داخلنا ومن واقع حياتنا ، سواء أكان انطلاقها عن وعيٍ منّا أو عن غير وعي .

ومن النتائج التي جذبتها إلينا الأسباب المتراكمة في حياتنا منذ أقدم العصور — الرأسماليّة والشيوعيّة . فكلتاهما تعود في نسبها إلى أسباب تجهلها موسكو وواشنطن بالسواء ، وإلى قوًى تتحكّم فيهما ولا تتحكّمان فيها . فهي أبعد بكثير من تفكير موسكو وتفكير واشنطن .

الشيوعية والالحاد

حقٌّ عليَّ أن أشهد ههنا بجهلي للشيوعيّة . فقد حاولت غير مرّة أيّام دراستي الجامعيّة أن أقرأ كتاب « رأس المال » لماركس ، فكنت في كلّ مرّة أرتدّ عنه وبي شيء من الملل وضيق النّفَس . أمّا أنجلس ولينين وستالين وغيرهم من دعاة الماركسيّة فما قرأت لهم شيئاً في الموضوع . وذلك لا يعني أنّني لم أقرأ في الصحف والكتب ولم أسمع من أفواه النّاس الشيء الكثير عن الشيوعيّة . فقد كان غريباً لو كان الأمر عكس ذلك مع رجل مثلي يكتب للنّاس، ويتحسّس مشكلاتهم ويحاول أن يتفهّمها ليضعها حيث لا تبدو مشكلات بل مراحل في طريق الإنسان إلى التفتّح على ما في طبيعته من قوى هائلة لو هو أحسن استخدامها لجَعَل من الأرض سماء تسوسها المحبّة فتُمرع حرّيّةً وجمالاً ، ولا يلقي عليها الموت ظلاًّ .

وحقٌّ لي أن أشهد بأنّني من المؤمنين بالتجدّد ومن أعداء الجمود وإبقاء القديم على قِدَمه . فمن شأن كلّ قديم ، إذا

طال عليه الزمان ، أن يتطرّق إليه الفساد والعفن ؛ ومن شأن كلّ جديد أن يصبح قديماً يوماً ما . لذلك كان التطوّر سنّة الحياة ، وكان لا بدّ من تيّارات جديدة تندفع من صميم القديم . فالشيوعيّة ما وُلدت يوم وُلد ماركس . ولا قامت لها دولة يوم قام لينين وأعوانه من حزب « البولشفيك » بثورتهم في عاصمة القياصرة . ولكنّها كانت جنيناً في رحم الإنسانيّة المعذّبة منذ راح النّاس يعيشون جماعات يستثمر بعضها بعضاً . فكان السيّد وكان العبد . وكان المتّخم وكان المحروم . وكان الحاكم والمحكوم ، والظالم والمظلوم . وكان القلق من مثل هذا التفاوت في حظوظ النّاس ، ومع القلق الشوق إلى حياة تنكسر فيها حدّة هذا التفاوت ، وتضيق الفجوات بين طبقة وطبقة ، وبين فرد وفرد .

لا . ما هو ماركس ولا لينين ولا ستالين الذي خلق الشيوعيّة . بل هو القلق من الفساد في النظم القائمة الذي خلق هؤلاء وأتباعهم – ذلك القلق عينه الذي بعث من قبل، ويبعث الآن ، وسيبعث في المستقبل ، جميع ثوراتنا الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة وسواها . فإذا نحن تنكرنا للشيوعيّة لمجرّد أنّها تغاير بعض النُّظم والأوضاع التي ألفناها فأيّ فارق إذ ذاك بيننا وبين الذين تنكروا للمسيحيّة والإسلام في أوّل نشأتهما ؛ والذين شنّوا حروباً شعواء على

القائلين باستدارة الأرض ودورانها حول الشمس ، وبسنّة التطوّر ؛ والذين نادوا بالويل والثبور عندما أعلنت الثورة الأميركيّة أن النّاس سواسية من حيث الحقوق ، وعندما أطاحت الثورة الفرنسيّة بتيجان الملوك وسلطانهم « المعطى لهم من الله » ، ونادت بالحريّة والمساواة والإخاء ، وبحصر السلطة في الشّعب لا في الحكّام ؟

ما أظنّ أن بين القائمين بهذه الصليبيّة العنيفة ضد الشيوعيّة مَن ليس يؤمن بأن الحياة الّتي نحياها حياة متطوّرة أبداً . لكنّهم ، كما يبدو ، لا يتقبّلون أيّ تطوّر إلاّ إذا جاء على هواهم . فهو إذ ذاك تطوُّر حسن ونافع وبنّاء . أمّا إذا عاكس هواهم فهو تطوُّر قبيح ومضرّ وهدّام . وإذ ذاك فمن واجبهم مقاومته بكلّ ما لديهم من حيلة وقوّة . فكأنّهم بذلك يؤدّبون الحياة الّتي أخطأت التصرّف ، ويردّونها إلى صوابها من بعد أن حادت عنه .

لقد فات أضداد الشيوعيّة وأنصارها على السواء أن كلّ تطوّر هو بدوره عرضة للتطوّر . فما قامت حركة جديدة ، أو مبدأ جديد ، أو اتجاه جديد في الأرض إلاّ أعمل الزمان فيها مبارده ومباضعه فأشبعها صقلاً وبتراً حتّى نكاد لا نتبيّن بعد سنين ملامحها الأصليّة . هكذا حدث لكلّ مذهب ديني وغير ديني . وهكذا سيحدث للشيوعيّة . فالجماهير ما تناولت مبدأ

من المبادىء وأبقت عليه كما تناولته . فهي بطبيعتها بطيئة الفهم والحركة ، ويزعجها أكبر الإزعاج أن تغيّر شيئاً في معتقداتها وخرافاتها ومناهج حياتها من يوم ليوم . لذلك لا تلبث أن تكيّف كلّ مبدإ أو مذهب بقدر ما تساعدها طبيعتها على فهمه ومطاوعته . وإنّه لمنتهى الحماقة أن نتوقّع من كلّ من يدعو نفسه بوذيّاً أن يكون بوذا ، أو مسيحياً أن يكون مسيحاً ، أو مسلماً أن يكون محمّداً ، أو ديموقراطيّاً أن يكون توماس جفرسن ، أو شيوعيّاً أن يكون ماركس أو لينين .

لعل أضداد الشيوعيّة وأنصارها ، لو أدركوا ذلك ، لخفّف الأوّلون من ذعرهم وقلقهم على العالم من الفناء ، وخفّف الآخرون من حدّة اندفاعهم في إيهام أنفسهم والنّاس بأنّه لو انقادت إليهم سياسة العالم لجعلوا منه جنّة لا يسكنها حزن أو وجع أو جهل أو فقر أو أيّ شائبة تُعكّر على النّاس صفاء الحياة .

إن يكن هنالك من خطر على العالم فالشيوعيّة ليست ذلك الخطر . بل الخطر في أن يقوم في الأرض من يعاند الحياة في تطوّرها ويدّعي لنفسه من الحكمة والقدرة والجبروت فوق ما للحياة .

ولا بأس لو أنا أثبتّ ههنا رسالة بعثت بها منذ عام وبعض العام إلى مؤلّف لبناني وضع كتاباً في الشيوعيّة وقدّم إليّ

نسخةً منه طالباً رأيي فيه . وإليك ما كتبت :

« لقد استطاع المؤلّف أن يدخل قلب الفلسفة الشيوعيّة ، وأن يعرضها بأسلوب يساعد القارىء على تفهّم الأسس التي تقوم عليها . أمّا أنّه استطاع أن يزن الشيوعيّة بتجرّد العالِم والفيلسوف ، وأن يبيّن مدى تأثيرها حتّى اليوم في مجاري الأحداث العالميّة وفي تعديل القيم البشريّة ، فذلك أمر آخر .

« يقول المؤلّف في مقدّمته :

« لقد حاولت في هذا الكتاب أن أكون منصفاً ــ مسرفاً في الإنصاف . . . » ولكنّه لا يلبث أن ينفي عنه صفة الإنصاف في أوّل فصل من فصول الكتاب إذ يتوّجه بهذه الكلمات : « الشيوعيّة جرثومة موت » . وهو لم يخطُ بعد بالقارىء خطوة واحدة تمهّد له الطّريق لتقبّل مثل هذا الحكم المبرم . ثمّ ما هي إلاّ سطور حتّى يجابهك المؤلّف باستنتاجات مرتجلة كقوله في سياق الحديث عن حالة الذّعر والقلق والفوضى التي تسود عالم اليوم :

« إنّ قوّة الموت هذه قد اشتدّت واتّسعت حدودها ، وعوامل الفناء والتدمير قد تضاعفت وامتدّ أذاها إلى مختلف وجوه الحياة . ولا عجب في ذلك لأنّ العقل العملي الذي أراد به ماركس تبديل وجه العالم وكشف سرّ التاريخ قد أدّى به بعد فترة من الزمن إلى الخراب ودكّ أُسس الإنسانيّة » .

« فهل هو هذا « العقل العملي » المسؤول الأوّل والأخير عن الخراب الذي جرّته الحرب الأخيرة والحروب التي سبقتها ؟ هل كان هتلر وموسوليني من تُبّاع ماركس ؟ أم كان غليوم من قبلهما ونابوليون ويوليوس قيصر وجنكيزخان وأتيلا وإسكندر ذو القرنين وغيرهم وغيرهم ممّن نكبوا الأرض بويلات لا توصف وصبغوها بالدّم القاني ؟ وهل كان الذين اخترعوا القنبلة الذريّة من تلاميذ لينين ؟ وهل إن « أسس الإنسانيّة » قد دُكّت في الواقع ؟ إذن على ماذا تقوم إنسانيّة اليوم ؟

« لا . ليس في هذا الكلام الملقى على عواهنه ما يطمئن القارىء إلى « إنصاف » الكاتب أو إلى عمق غوره عندما يعزو جميع ما في الأرض من شرور إلى الشيوعيّة الملحدة . أفما عرفت الأرض الشرّ قبل أن تعرف الشيوعيّة ؟ وقد كان أهل الأرض بأكثريتهم الساحقة « مؤمنين » قبل أن تأتيهم الشيوعيّة بإلحادها . فما بال إيمانهم لم ينجهم من شرورهم ؟ ثمّ ما بال إيمانهم يؤدي بهم إلى إلحاد الشيوعيّة ؟ ألعلّ الشيوعيّة نبتت ولا جذور لها في الماضي القريب والبعيد ؟ بل إنّها نبتت في صميم هذا الماضي المغموس إلى ما فوق أذنيه في شتّى الأديان والمذاهب . فكيف تفسّر انبثاق الإلحاد من الإيمان ؟

« ومن ثمّ فالمؤلّف ، وهو في صدد الكلام عن الشيوعيّة

الملحدة ، يفضح نفسه بتعصّبه لمذهبه الكاثوليكي دون كلّ المذاهب المسيحيّة ، ثمّ بتعصّبه للمسيحيّة دون سائر الأديان . فهو لا يذكر من هذه الأديان غير المسيحيّة . كأن الإلحاد لا يكون إلحاداً إلاّ إذا كان خروجاً على المسيحيّة الكاثوليكيّة وحدها . أمّا أن يكون كذلك في البوذيّة والطاويّة والهندوكيّة والموسويّة والإسلام والبهائيّة وسواها من المذاهب الدينيّة المعروفة في الأرض فأمر يتغاضى عنه . ولذلك فهو يُكثر في دحضه الإلحاد من الاستشهاد بأقوال البابوات وغيرهم من رجال الكنيسة الكاثوليكيّة . والمعروف عن الفاتيكان أنّه ألدّ أعداء الشيوعيّة لأسباب دينيّة وغير دينيّة . فهل يليق بكاتب يدّعي التجرّد أن يتّخذ من أقوال الفاتيكان حجّة ضدّ الشيوعيّة ؟ لئن صحّ له ذلك فلماذا لا يصحّ لغيره أن يتّخذ من أقوال ماركس وأنجلس ولينين وستالين حجّة ضدّ الفاتيكان ؟

« وبعد ، أفلا يوافقني المؤلّف في أن إلحاد « المؤمنين » يفوق بكثير إلحاد الشيوعيين ؟ فالأكثريّة الساحقة منهم ينطبق عليهم قول الله بلسان أحد الأنبياء : « إن هذا الشعب يقترب مني بلسانه . أمّا قلبه فبعيد عني جدّاً » . وقول المسيح : « ليس كلّ من يقول لي يا ربّ ، يا ربّ ، يدخل ملكوت السموات . بل الذي يعمل مشيئة أبي الذي في السموات هو

يدخل ملكوت السموات » ؟ وكم هم المؤمنون الذين يعملون « مشيئة الأب الذي في السموات » ؟ إنّهم بالتأكيد لا يُعدّون بالملايين ، ولا بالألوف ، ولا بالمئات ، حتّى ولا بالعشرات .

« وإني لأسأل المؤلّف الذي يخشى على الإنسانيّة الدمار إذا تفشّى فيها الإلحاد : هل إن ربّه ربّ رحمة أم ربّ نقمة ؟ وربّ محبّة أم ربّ بغضاء ؟ وهل هو من العجز بحيث لو شاء لما استطاع أن يمحق الملحدين محقاً ؟ ومن أين للمؤلّف « المؤمن » أن يبتّ بأن الشيوعيّة ليست من مشيئة الله ؟ ولعلّه شاءها أن تكون امتحاناً لا لإيمان المؤمنين فقط بل لجميع النُّظم التي تسير عليها البشريّة عساها أن تطهّر تلك النُّظم من كلّ ما تسرّب إليها من عفن وفساد على كرّ الأجيال . وهل من ينكر ان النُّظم القائمة اليوم مليئة بالفساد والعفن ؟

« وما هو الإلحاد ؟

« إن القوى التي يبلغ بها الملحد إلحاده هي عين القوى التي يبلغ بها المؤمن إيمانه . سمّها عقلاً أو خيالاً أو حدساً أو ما شئت من الأسماء . إلاّ أن الملحد يستعملها بطريقة تبلغ به الإلحاد . ويستعملها المؤمن بطريقة تبلغ به الإيمان . فلماذا لا يكون للأوّل مثل ما للثاني من الحقّ والحريّة في استخدام تلك القوى ؟

« إن يكن الإيمان في نظر المؤمن مرحلة أبعد من الإلحاد

فليس على المؤمن إذ ذاك إلاّ أن يصبر على الملحد حتّى يقطع مرحلة الإلحاد إلى مرحلة الإيمان . أمّا أن يقوده إليها بالسوط أو بالسّيف أو بالبغض أو بأيّ وسيلة من وسائل العنف فأمر لا يشرّفه ولا يشرّف إيمانه . بل على العكس . إنّه يشهد بعدم إيمانه بإيمانه ، وبضعف يقينه في يقينه .

« والإيمان ، إذا كان إيماناً حقّاً ، كان صدره أرحب من الفضاء ، وكان على ثقة لا تتزعزع بأن التائهين والمشكّكين والملحدين سينتهون إليه يوماً ما . فلماذا ضيق الصدر ؟ ولماذا الخوف والقلق والحقد والكراهية والاستعداد المحموم للحرب ؟ ولماذا اللجاجة والزمان أطول من أن تفنيه عقارب السّاعات ، وأن تطويه دورات الكواكب ؟

« وقبل أن أنهي هذه الملاحظات العجلى في الكتاب أريد أن أقطع على المؤلّف طريق الشك في إيماني . فأنا من المؤمنين العنيدين في إيمانهم . ولكن إيماني لا يضيق بأيّ مذهب مهما يكن نوعه أو لونه . لأن لي من إيماني ثقة بحكمة الحياة ونظامها وعدلها وقدرتها على الدّفاع عن نفسها . ومن ذلك الإيمان إيماني بقدرة الإنسان المتطوّر أن يبلغ من المجد والعظمة والجبروت فوق ما يستطيع اليوم أن يتخيّله حتى في أبعد وثبات خياله . ولأن لي ذلك الإيمان بالحياة يسهل عليّ جدّاً أن أتقبّلها بمنتهى الارتياح في أيّما زيّ تزيّت، وفي أيّما صورة

تجلّت . ولأن لي ذلك الإيمان بالإنسان لا يصعب عليّ أن أراه يتعثّر هنا ويتردّد هناك ، ولا أن أراه عاجزاً عن إدراك الكمال بقفزة واحدة . فالمهم أنّه يحبو إليه .

« وطريق آخر أُحبّ أن أقطعه على المؤلّف . وهو طريق الشك في « لوني » الحزبي . فأنا أبعد ما أكون عن التحزّب لأيّ مذهب – حتى مذهبي . وهو مذهب لا يتّسع له أيّ من المذاهب المعروفة ما بين دينيّة وغير دينيّة . وهو يرضيني منتهى الرضا . إلاّ أنّني ما حاولت يوماً ، ولن أُحاول ، أن أرغم غيري على اعتناقه . وإذا ما ظهرت في هذه الرسالة في مظهر من يدافع عن الشيوعيّة فليس لأنّها مذهب ينسجم مع مذهبي . بل لأنّني رجل يتعشّق الإنصاف والسلام والمحبّة ، ويريدُ للنّاس أن يعيشوا على هذه الأرض من غير أن يتنازعوا عليها وعلى خيراتها . ويريدهم أن يجعلوا منها سماء . وذلك لن يتأتّى لهم بغير الصبر والتّسامح والتفاهم والتقارب والتعاون .

« ويؤسفني أن لا أجد في الكتاب ذلك الإنصاف الذي وعد به المؤلّف في مقدّمته ، وأن لا أقع ولا على شبه دعوة إلى التعاون والتقارب والتفاهم . فالكتاب لا يعدو كونه حلقة جديدة في سلسلة الدعاوات والاتّهامات المغرضة التي يتراشق بها أنصار الشيوعيّة وأضدادها ، فيزيدون نار الحقد ضراماً ،

ويدفعون بالنّاس إلى الهاوية إذ هم يوهمونهم أنّهم سائرون بهم إلى القمّة . » – انتهت الرسالة .

وبودّي ههنا أن أمضي إلى أبعد من ذلك في الحديث عن الإيمان والإلحاد . فأسأل المؤمنين عن إيمانهم ما هو ، وماذا جنوا منه حتّى اليوم ولم يكن باستطاعتهم أن يجنوه إلاّ به ؟

أهو الإيمان أن تؤدّي فرائض بعينها ، وفي أوقات وأماكن بعينها ؟ ولماذا ؟ لتسترضي الله فيعطيك ما تشاء ويردّ عنك ما لست تشاء ؟ فما قولك بالأمم التي بادت عن وجه الأرض وكانت تفعل ذلك بالتمام – وتفعله في كلّ يوم من كلّ عام ؟ ما قولك بالشعوب التي ما تزال حيّة ، والتي رزحت أجيالاً طوالاً تحت أثقال الفقر والجوع والجهل والاستعمار وكانت صلواتها لا تنقطع طالبة عكس ذلك بالتمام ؟

ما قولك باليهود – « شعب الله المختار » – يبدّدهم إلههم في أنحاء المعمور برغم جميع ما رفعوا ويرفعون إليه من صلوات وذبائح ؟

ما قولك بالمسيحيّين يشيدون الهياكل الفخمة لمسيحهم ويضرعون إليه في الغداة والعشية فلا ينقذهم من الحروب وويلات الحروب ، ولا من الثورات والنكبات ؟

وما قولك بالمسلمين يصومون ويصلّون ويشهدون أن

لا إله إلاّ الله ، فما انقضت سنوات على موت نبيّهم حتى ذرّ قرن الفتنة فيما بينهم ، وراحوا يتقاتلون ويتطاحنون ؟ أنقول إن معاوية كان أكثر أو أصدق إيماناً من عليّ فنصره الله عليه ؟ أم نقول إن المسلمين إجمالاً كانوا في عهد الفتوح أكثر إسلاماً منهم في عهود انحطاطهم وانخذالهم ؟

لَكَم صلّى الفرنسيّون لمليكهم لويس السادس عشر فما نجته صلواتهم من المقصلة . ولأمبراطورهم نابوليون الأوّل فما سدّوا الطريق بينه وبين جزيرة القدّيسة هيلانة . ولكم رفع الرّوس ضراعاتهم من أجل قيصرهم نقولا الثاني وأفراد عائلته فكانت نتيجة ضراعاتهم أن قضى القيصر وأفراد عائلته ببضع رصاصات أطلقها جنود كانوا في السابق يصلّون من أجل سعادتهم وعظمتهم وطول حياتهم !

ولكم يصلّي النّاس ويصومون في مشارق الأرض ومغاربها ، فلا أحزانهم تنقلب أفراحاً ، ولا جوعهم شبعاً ، ولا ظلمهم عدلاً ، ولا عبوديتهم حريّة ، ولا حربهم سلماً ، ولا قلقهم طمأنينة . أفليس عليهم ، والحالة هذه ، أن يتوقفوا قليلاً ويسألوا أنفسهم : لماذا يذهب صومنا بدون جدوى ، وتمضي صلواتنا نفثات في الهواء ؟ عساهم لو سألوا مثل هذا السؤال لتبيّن لهم أن ما يدعونه إيماناً ليس إيماناً على الإطلاق . إن هو غير تغطية ساذجة لما فيهم من ضعف وخوف ، ومن

نزوات بهيميّة تحاول أن تلبس المسوح لتظهر كما لو كانت نزعات ملائكيّة .

هكذا يبني أحد أرباب الملايين هيكلاً «للربّ» ، أو مستشفى أو مدرسة ، أو يتبرّع بمبلغ كبير لإحدى الجمعيات الخيريّة ، فيظنّ ، ويظنّ النّاس ، أنّه بذلك قد استرضى ربّه وستر عن عينيه جميع المآثم التي ارتكبها في جمع ملايينه . وينسى ما قاله المسيح عن أنّه «أيسر لجملٍ أن يدخل ثقب إبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات» . وما قاله للذي جاءه يسأل عماذا يجب أن يعمل ليرث الحياة الأبديّة : «بع كلّ شيء لك ووزعه على المساكين ، فيكون لك كنز في السماء . وتعالَ اتبعني .» وما قاله عن نفسه : «للثعالب أوجار . ولطيور السماء أوكار . أمّا ابن الإنسان فليس له أين يضع رأسه .»

لا . ليس الإيمان بتتميم شعائر تُفرض عليك فرضاً . ولا هو بالشيء الذي ينتقل بالإرث انتقال المال والعقار . ولكنّه اليقين ينبع من النّفس بأن الحياة الّتي تعمل فيك هي عينها الّتي تعمل في سائر الكائنات حواليك . ولولا أنّها تحبّك أضعاف أضعاف حبّك لها ، لما تملّك حبّك لها جميع مشاعرك عليك ، ولما تعلّقت بها حتى الموت . فحريّ بك إذا أحببت نفسك — وأنت تحبّها — أن تحبّ جميع الكائنات الّتي تعمل فيها الحياة

مثلما تعمل فيك . وأنت متى أحببت الحياة في غيرك محبتك لها في نفسك كنت في غنًى عن أيّ معبد تكرّمها فيه غير قلبك، وعن أيّ كاهن، أو قسيس، أو حاخام، أو شيخ، أو أيّ إنسان آخر يقوم وسيطاً بينك وبينها . فهي ألصق بك من جلدك ، وأدرى بحاجاتك منك ومن كلّ من ادّعى اتصالاً بها أوثق من اتصالك.

ولتعرف أن كلّ ما يتستّر باسم الإيمان والدين ليس من جوهر الحياة ما عليك إلاّ أن تنظر حواليك . وماذا ترى؟ إنّك ترى الحياة تسير في سبلها برغم التناقض في صلوات المصلّين والتناحر بين المذاهب والمتمذهبين . فلا هي تحجب الرحمة عن الملحدين والكافرين ، ولا هي تغمر بالخير والراحة والسلام قلوب المتعبّدين والمؤمنين . بل قد يكون الملحد المخلص في إلحاده أحبّ إليها من المؤمن المرائي في إيمانه .

أما خطر ولو مرّة في بالك أن تتخيّل النّاس يفيقون ذات صباح وإذا بأرضهم مقفرة من المعابد والكهّان ؟ ترى أيّ دهشة تكون دهشتهم إذ ينظرون إلى السماء وإذا بها هي هي ، وحيث هي ؛ وإلى الشّمس فإذا بنورها يملأ الفضاء كالمعتاد ؛ وإلى الأرض فإذا بجبالها وبحارها ، ونباتها وحيوانها ، وهوائها وكلّ ما عليها ومَن عليها ما تغيّر فيهم شيء ؟ أو ينظرون إلى أنفسهم فإذا بقاماتهم ووجوههم وشعورهم وكلّ ما في أجسادهم لم يطرأ عليها أيّ تبدّل، وإذا بهم يجوعون ويعطشون،

ويأكلون ويشربون، ويتزوّجون ويتناسلون، ويحبّون ويكرهون، ويفرحون ويحزنون كما كانوا يفعلون أمس ؟ ويمضي يوم – وتمضي أيّام – وتمضي أعوام – وتمضي قرون وتبقى الحياة ماضية في عملها ، لا يزعجها اختفاء المعابد من الأرض ، ولا يصرفها عن الاهتمام بالنّاس فقدان الكهّان من بينهم .

لست أريد أن يفهم القارىء من كلامي هذا أنّني لا أقيم وزناً للصلاة وللكتب الدينيّة . فالصلاة غير الطقوس ، وغير الكهانة . ومن الكتب الدينيّة ما لو فقدته البشريّة لفقدت أعزّ ما تملك . والذي لا أُقيم له وزناً هو الإيمان الذي لا يكون إيماناً إلاّ إذا انصبّ في قالب من الطقوس التي لا تتغيّر ولا تتبدّل ؛ وإلاّ إذا استوسط فئة من النّاس بين المؤمن وبين ربّه ، ثمّ دفع « ثمن » الوساطة من جيبه ، أو من فكره ، أو من قلبه ، ورضي أن يكون غير الله وصيّاً عليه وعلى وجدانه . وإذ ذاك فأنا لا ألوم الشيوعيّة إذا هي قبّحت مثل هذا الإيمان . وألومها تقبّح كلّ إيمان وتحاول فرض الإلحاد فرضاً . ناسية أنّها بذلك تجعل من إلحادها « إيماناً » لا يختلف في شيء عن الإيمان الذي تحاربه . أمّا الإيمان النّابع من أعماق النّفس ، والمحصّن بشغاف القلب ، والذي هو الصلة المباشرة ما بين المؤمن وربّه ، فلا الشيوعيّة ولا جميع القوى الأرضيّة بقادرة أن تمسّه بسوء .

الشيوعية والحرية

ما أظن أن من بين آلاف المفردات التي استنبطها الإنسان للتعبير عن مجاري حياته ومتطلّباتها ما هو أطيب على قلبه ، وأعذب لأذنه ، وأوقع في نفسه من كلمة « الحريّة » . ولا أستثني « الخير » و « الحق » و « الجمال » و « العدل » و « الإخاء » و « المساواة » و « الخلود » وغيرها من الكلمات التي مجرّد وجودها في القاموس البشري يشهد للإنسان بأنّه كائن ولا كسائر الكائنات . فهي إن دلّت على شيء فعلى أن في طبيعة الإنسان ما يهديه ويوجهه إلى الغاية من وجوده . ولو أن غايته من وجوده ما كانت أبعد من الأكل والشرب والتناسل ، واستراق الملذّات العابرة ، والتهرّب من الأكدار والأوجاع التي تأتي في أعقابها ، لاكتفى من عيشه بهذه الأشياء اكتفاء الحيوان بها ، ولما تشوّق إلى ما هو أبعد منها بكثير .

إنّما الإنسان بأشواقه . أمّا أعماله ، وإن بدت مشوّشة وقلقة ومتعثّرة ، فليست سوى الخطوات يخطوها المفتّش في

الظّلام عن غرض من الأغراض . إنّه لواثق من وجود ذلك الغرض ، ولكن الظّلام يحمله على تلمّس سبيله إليه . وقد يكون بجانبه فيدور ألف دورة ودورة قبل أن يهتدي إليه . هكذا يدور الإنسان دورة بعد دورة بعد دورة ، فيكبو هنا وينهض هناك ، قبل أن يحقّق شوقاً من أشواقه . إلاّ أنّه لا يقنط ، ولا ينفك يدور ويفتّش حتّى يكون له ما يريده . فهو عنيد لأنّ الشوق الذي يدفعه شوق عنيد لا ينطفىء حتّى يتحقّق .

لَكَم شاق الإنسان منذ أقدم العصور أن يكون له جناحان . فما انفكّ يحاول ويخفق حتّى كان له في النهاية ما أراد .

ولَكَم شاقه أن يبصر ويسمع ما هو أبعد من مجال بصره وسمعه . وها هو اليوم يبصر ويسمع ، وهو جالس في بيته ، ما يجري في مشارق الأرض ومغاربها .

ولَكَم تطلّع إلى الأجرام السماويّة فتمنّى لو يتّصل بها ويعرف ما فيها . وها هو يعرف عنها أضعاف أضعاف ما كان يعرفه فيما مضى . وسيأتي يوم تطأُ فيه قدمه أديم الكثير منها .

ما أكثر الأمثلة وما أفصح ما تقوله ! والذي تقوله هو أنّه يكفي الإنسان أن يحسّ شوقاً إلى أمر من الأمور ، أو حالة من الحالات ، ليصبح ذلك الشوق هدفاً من أهدافه ،

وليدرك ذلك الهدف يوماً من الأيّام – ولو بعد آلاف السنين . فالشوق قد يخبو إلى حين . ولكنّه لا يلبث أن يستعر من جديد . ويبقى يخبو ويستعر إلى أن يتحقّق في النهاية . لأن السلاح الضروري لتحقيقه موفور في طبيعة الإنسان . وما عليه إلاّ أن يتدرّب على استعماله حتّى يتقنه إلى آخر حدود الإتقان . أمّا ذلك السلاح فالفكر والخيال والوجدان والإرادة وما تنطوي عليه من قوًى لا نفاد لها .

من هذه الزاوية ، لا من غيرها ، يتحتّم علينا أن ننظر إلى الإنسان وأهدافه البعيدة . وأبعد هذه الأهداف وأنبلها على الإطلاق – الحرّيّة .

فما هي تلك الحرّيّة التي نتشوّق إليها ، والتي إذا بلغناها بلغنا منتهى أشواقنا ؟

إنّها الألوهة التي أشارت إليها « الحيّة » في قولها لآدم وحواء بصدد الأكل من ثمر شجرة الخير والشرّ وما يترتّب عليه من موت :

« لن تموتا . إنّما الله عالم أنّكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشرّ . »

و « الحيّة » هنا تعني الحياة المنغلقة في الإنسان والمتشوّقة إلى الانطلاق . ولكن انطلاقها لن يأتيها هبة من فوق ، بل نتيجة للمعرفة التي ستكسبها بجهودها الخاصّة عن طريق المقارنة

والاستنتاج في دنيا تناقض كلّ ما فيها : فنور وظلمة ، وشبع وجوع ، ولذّة وألم ، وراحة وتعب ، ومحبّة وبغض ، وأمانة وخيانة ، ونموّ وانحلال ، وولادة وموت ، إلى آخر ما هنالك من متناقضات لا تقع تحت حصر . وتلك المعرفة ، يوم يبلغها الإنسان ، ينقلب عن شجرة «معرفة الخير والشرّ» إلى شجرة «الحياة» التي هي فوق الخير والشرّ وجميع ما يلازمهما من قيود وحدود وسدود . وعندئذٍ ، لا قبل ، يعرف طعم الحريّة.

ما دمنا في دنيا الخير والشرّ فنحن عبيد للاثنين . وإذ ذاك فالحرّيّة — أو الحرّيّات — التي نتحدّث عنها ، ونباهي بها ، ونضحّي في سبيلها ، ليست سوى تخدير مؤقّت لشوقنا إلى الحرّيّة المثلى .

والحرّيّة المثلى تعني أن تكون إرادتنا فوق كلّ إرادة ، أو أن تنسجم إرادتنا والإرادة الكونيّة إلى حدّ أن تصبح الاثنتان إرادة واحدة . فأين نحن اليوم من هذه الحرّيّة ؟

إنّنا لا نزال منها في أوّل الطريق ، فمهما يكن نضالنا عنيفاً ضدّ القيود والحدود والسدود نرانا مكرهين ، في النهاية ، على الانصياع أو الامتثال لإرادة غير إرادتنا . فلا نكاد نفكّ قيداً حتّى نفاجأ بقيود . ولا نجتاز حدّاً أو نهدم سدّاً حتّى تقوم في وجهنا حدود وسدود .

تلك هي حالنا مع أجسادنا ، وهي ألصق الأشياء بنا

وأحبّها إلينا . ولكنّها تُفرض علينا فرضاً ، ومعها تُفرض حاجاتها والسعي المستمر لسدّ تلك الحاجات — وما أكثرها ! فنحن عبيد كلّ خليّة من خلايا أجسادنا ، وكلّ حاجة من حاجاتها .

كنّا في المغاور عبيد المغاور . وها نحن في القصور عبيد القصور . وكنّا عبيد أرجلنا ، أو عبيد الحمار والبغل والحصان والبعير . وها نحن اليوم لا نزال عبيد أرجلنا وعبيد الدراجة والقطار والباخرة والسيّارة والطيّارة . فما أفدح ما تكلّفنا هذه كلّها من جهود في خلقها وسدّ حاجاتها !

وكنّا عبيد المخرقين يداوون أوجاعنا بالتعاويذ والحشائش والكيّ . فأصبحنا عبيد الشهادات الطبيّة ، وعبيد المستشفيات والصيدليات والعقاقير تُقدَّم لنا في أوعية هي الغاية في الإتقان ولكنّها ، في الغالب ، تمضي بأموالنا ولا تمضي بأوجاعنا .

وكنّا عبيد الكهّان يوهموننا أنّهم على اتّصال وثيق بالآلهة ، فيحرّمون علينا باسمهم ما يشاؤون . ويحلّلون لنا ما يشاؤون ، ويبتزّون ما يطيب لهم ممّا في جيوبنا وقلوبنا ليجلبوا لنا رضا الآلهة ويدفعوا عنّا سخطهم . ونحن اليوم عبيد المعابد نمضي إليها لنحرق البخور ، ونقرع الصدور . ونحني الركب والظهور ؛ وعبيد جيوش من الكهّان يفعلون فعل أسلافهم فيربطون مَن يربطون ويحلّون مَن يحلّون ، ويرسلون

إلى الجنّة أو الجحيم مَن يرسلون ، ويبتزّون ما يطيب لهم ممّا في جيوبنا وقلوبنا ليجلبوا لنا الخير ، ويدفعوا عنّا الشرّ . ولكنّنا في خيرنا وشرّنا أبداً مقيمون .

كنّا ولا نزال عبيد القوانين تُفرض علينا من فوق أو من أسفل . وعبيد التقاليد والعادات والخرافات تأتينا بها حاجة عابرة فتكتسب على الزمان صلابة الفولاذ ، ورسوخ الطود ، وقدسيّة الحقّ

كنّا ، ولا نزال ، عبيد الطبيعة . لا نملك أن نقول للشّمس : زيدي أو خفّضي من نورك ونارك . ولا للقمر : كن دائماً بدراً . ولا للأرض : كفّي عن الدوران . ولا للرّيح إذا هبّت : سدّي منافخك . ولا للبحر إذا انتشر غيوماً في الفضاء : اطوِ غيومك . ولا للصخر : كن كلأً . ولا للرمل : صِرْ تبراً . ولا للذئب : كن حَمَلاً . ولا للثعبان : حوّل السمّ الذي في فيك شهداً .

كنّا ، ولا نزال ، عبيد أفكارنا في اليقظة وأحلامنا في المنام . لا سلطان لنا على الأولى إلى حد أن نسوقها في المجرى الذي نختطه لها فلا تحيد عنه قيد أنملة .

ولا نملك أن نسيّر الثانية حسب هوانا ، فنحلم ما نشاء ساعة نشاء . أو لا نحلم على الإطلاق .

وكنّا ، ولا نبرح ، عبيد شهواتنا ونزواتنا ، تتقاذفنا

في كلّ لحظة من وجودنا فلا نستقرّ معها يوماً من الأيّام على حال من الأحوال . وكيف نستقرّ وقلوبنا قد انطوت على المحبّة إلى جانب البغضاء ، وعلى الصفح والحقد ، والمودّة والخصومة ، والقناعة والجشع ، واليقين والشكّ ، والإيمان والكفر ، والطهارة والدعارة ، والرجاء واليأس ، والسلام وحبّ البطش وغيرها وغيرها من بِيض النزوات وسودها ؟ تشيل كفّة الواحدة فتهبط كفّة الأخرى . ثمّ لا تلبث أن تشيل كفّة هذه وتهبط كفّة تلك . فهي أبداً في ارتفاع وانخفاض ، ولا ثبات لها البتّة .

وأخيراً كنّا عبيد الموت ولا نزال . فأين حرّيتنا ؟

ما دمنا في عالم نأتيه غير مخيّرين ، ونعيش فيه مقيّدين بنظام أو نُظم لا ضلع لنا في تكوينها وتسييرها ، ثمّ ننزح عنه مكرهين ، فإن أقصى ما نستطيع ادعاءه من الحرّيّة هو الشوق إليها والسعي إلى تحقيق ذلك الشوق . وفي ما عدا ذلك فحياتنا لا تزال حياة امتثال وانصياع وطاعة لقوًى تنبع من إرادة غير إرادتنا . ونحن ، من هذا القبيل ، « في الهوى سوا » .

لذلك فإنّه من السخرية بمكان أن تقوم في الأرض جماعات تدّعي لنفسها الحرّيّة وتنفيها عن سواها . فلا في الشرق ولا في الغرب ، ولا في الجنوب ولا في الشمال قوم عرفوا الحرّيّة بمعناها الصحيح . بل إنّك أينما ذهبت وقعت على نُظم تحدّ

من حرّيّة انتقالك وفكرك وضميرك وعملك. فأنت «مواطن» في هذه البقعة و «غريب» عن كلّ بقعة سواها من بقاع الأرض. فإذا شئت الانتقال من هذه الزاوية إلى تلك قامت في وجهك سدود أين منها سدود الجنّة في وجوه الكافرين.

وأنت «حرٌّ» أن تعمل أو أن لا تعمل. ولكنّك مكره على العمل لتحصيل قوتك. وإنّه لمنتهى السخف أن تصدّق كانس الشوارع، أو منظف البواخير، أو عاملاً في منجم فحم أو في مصهر حديد إذا هو قال لك إنّه كان «حرّاً» في اختيار عمله. فالذين يعملون حبّاً بالعمل، ويجدون لذّة في ما يعملون، لا يُعَدّون بالملايين ولا بالألوف. ومَن بقي فكلّهم يعمل مسوقاً بالحاجة إلى الرغيف والكساء والمأوى لا بلذّة يجدها في عمله: فهو عبد لعمله ولحاجته.

وأنت «حرّ» أن تختار حكّامك. وذلك – إذا صحّ – لا يعني أكثر من تفضيلك لوناً من العبوديّة على لون. إذ ان كلّ حكم يُسلّط عليك من خارج نفسك هو ضرب من العبوديّة، لا فرق أكان حكم فرد أم كان حكم جماعة، وكان اشتراكيّاً أم رأسماليّاً.

وأنت «حرّ» أن تعبد الإله الذي تريد حسبما تريد. ولكنّك، في الواقع، لا تختار إلهك ولا طريقة عبادته. بل تفرضهما عليك الوراثة والتقاليد. حتّى إذا عنّ لك أن تخرج

على هذه حُسبت مارقاً من الدين ، وبتّ منبوذاً من ذويك ومن عشيرتك . وإذ ذاك فأنت عبد ذويك وعشيرتك .

وأنت « حرّ » أن تقول ما تشاء ساعة تشاء ، على أن لا يثير قولك الجماعة الّتي أنت واحد منها ، ولا يهدّد نظمها وتقاليدها . وإذن فحريّتك حرّيّة موهومة . لأنّها مكبّلة بقيود . والقيد والحرّيّة لا يجتمعان .

وإنّه لغريب حقّاً أن تسمع الغيارى على الحرّيّة يحدثونك بمنتهى الجدّ والرصانة عن حرّيّة الفرد وحرّيّة الجماعة ، ثمّ عن القيود الّتي تفرضها هذه على تلك ، وتلك على هذه . فمجرّد الكلام عن الحرّيّة المقيّدة هو نفي للحرّيّة . فأيّ الحرّيّة هي حرّيّتك في الحمّام أو في البرّيّة إذا كنت مكرهاً أن تتخلّى عنها في الصالون ، أو حول المائدة ، أو في الشارع ، أو في أيّ محلّ عمومي ؟ بل أيّ الحرّيّة هي حرّيّتك إذا ما عنّ للجماعة الّتي أنت واحد منها أن تشنّ على جماعة أخرى حرباً « دفاعية » أو « هجوميّة » وأن تجندك للحرب ؟ إنّك إذ ذاكِ عبدٌ وأذلّ من عبد . فلا لحمك ولا دمك ولا عظامك ، ولا فكرك ولا قلبك ملك لك ، بل للجماعة ، تتصرفّ بها كما تشاء . وأنت مكره أن تعادي من لا عداوة بينك وبينهم ، وأن تقتل من لا تعرفهم ولا يعرفونك ، وأن تهدم بيوتاً ما وضعت حجراً واحداً في أسسها وجدرانها ، وأن تيتم أطفالاً

ما أنفقت فلساً واحداً في تربيتهم وإعالتهم .

إذا كنت لا تستغرب من الجماعة التي تنتسب إليها أن تجمع بين الجندية والحرية ، وأن تسوقك قسر إرادتك إلى التنكيل بالناس ، فعلامَ تستغرب من جماعةٍ أُخرى أن تجند جميع قواها البشرية وغير البشرية في حرب ، أو حروب ، تشنها لا على الناس ، بل على الآفات التي تفتك بالناس ؟ ألعلّ الحرب لا تكون حرباً « مقدسة » إلا إذا كان العدو فيها من لحم ودم ؟ فما قولك بالحرب ضد الفقر والذل والجهل والظلم والجشع وما إليها ؟ إنها لأشد هولاً بما لا يقاس من حرب النار والحديد ضد اللحم والدم . وإنها لحرب مقدسة حقاً . والتجنيد في سبيلها أقل تجنياً على الحرية من التجنيد في سبيل الحروب التقليدية .

أُريد أن أخلص من كل هذا إلى القول بأن الرأسمالية والشيوعية ، من حيث الحرية ، سيان . فلا تلك ولا هذه تستطيع الادعاء أنها تخلصت من القيود والحدود والسدود التي تجعل من الحرية طيفاً جميلاً تائهاً في الأرض . وإذ ذاك فلا مجال للمفاضلة . فكيف بالمهاترة ؟

ولستُ أُريد أن يُفهم مما قلته في الحرية والعبودية أنني لا أرى كبير خير في ما يدعونه « الحركات التحررية » . فما دمنا نعيش على هذه الأرض شعوباً تختلف بعضها عن بعض

لوناً ولغة ومزاجاً وتاريخاً وتقاليد وثقافة بات من الإثم الأكبر أن يحكم شعب قويّ شعباً ضعيفاً قسر إرادته . فيذلّه ويستغلّه ويحاول ــ وإن عبثاً ــ أن يطفىء فيه الشوق إلى الحرّيّة . أجل . إن في الأرض شعوباً كثيرة يحكمها حكّام منها وفيها فيذلّونها ويستغلّونها . ولكن المذلّة تأتيك من أهلك هي غير المذلّة تأتيك من غريب . وأن يستغلّك أخوك لأهون عليك من أن يستغلّك حتى ابن عمّك .

بقي أن أقول إن كلّ فكرة تنزع إلى إزالة الحدود والسدود من بين الشعوب ، وإلى تضييق الشقّة بين طبقة وأخرى من طبقات النّاس إن من حيث الانتفاع بخيرات الأرض وخيرات الفكر البشري ، أو من حيث القيمة والكرامة ، هي فكرة مباركة . فالحدود والسدود التي تقوم اليوم بين شعب وشعب تكلّفنا جهوداً باهظة في حراستها والمحافظة عليها . وهذه الجهود لو بُذلت في سبيل تحرير الشعوب ممّا يساورها من خوف وحذر وقلق لتخلّت الشعوب عن حدودها وسدودها .

وهذه الخيرات لو توزّعت بأقصى ما يمكن من القسط ، لكان من شأن ذلك أن يدفع بالإنسانيّة أشواطاً بعيدة نحو الحرّيّة الحقّة . على أن يتمّ ذلك بدون عنف وإراقة دماء . فما يؤخذ بالعنف يُفقد بالعنف . وثمن الدم لن يكون غير الدم .

ولولا أن الشيوعيّة مشت إلى غاياتها بالعنف وبأيدٍ مضرّجة

وأرجلٍ مغمّسة بالدم لكانت أخفّ أوزاراً ، وأنقى بصراً ، وآمن خطى في السير نحو أهدافها . فحسبها أنّها تنادي بإلغاء الحدود والسدود بين الشعوب ، وبتقديس العمل وكرامة العامل ، وبتحرير الإنسان من البطالة والعوز وخوف الشيخوخة ليوقظ نداؤها أشواقاً إلى الحرّيّة ما عرفتها الأجيال السالفة على نطاق واسع كهذا النطاق . وليس من العدل أن ندينها لأنّها ما حقّقت بعدُ أهدافها . فهل حقّق أيّ مبدإ أو أيّ دين كلّ أهدافه ؟

خذوا المسيحيّة مثلاً . لقد مرّ على ميلاد المسيح ١٩٥٧ سنة . فأين المسيحيون اليوم من رسالته حيث يقول « أحبّوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . لا تدينوا لكيلا تدانوا . لأنّكم بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم وأزود » ؟ إن الأثير لمثقل بالبغض ينفثه فيه المسيحيّون بعضهم لبعض ولغير المسيحيّين ، وباللعنات يرسلونها في كلّ ساعات النّهار واللّيل لأعدائهم . وقد بات كلّ منهم يحمل ميزان الدينونة بيمينه وبيساره . في حين ترتفع قباب كنائسهم بالألوف ومئات الألوف في مشارق الأرض ومغاربها ، وصراخ نواقيسهم يشقّ عنان الفضاء ، ودخان بخورهم يتعالى سحباً كثيفة إلى السماء !

لقد حدثهم مسيحهم عن « الآب » — عنوان النظام الكلّي السرمدي ، وقال إنّه يحصي عليهم حتى شعور رؤوسهم ،

فلا تسقط واحدة منها إلاّ بمعرفته وإرادته . وعلّمهم أن الطريق الأوحد إلى الحرّيّة – أو الخلاص – هو مطاوعة النظام عن محبّة لا عن كراهية . فالنظام – كلّ نظام – هو قيد لحرّيّتك إذا جهلته فكرهته . ولكنّه الحرّيّة بعينها إذا أنت أحببته ففهمته . فالمحبّة هي طريق الفهم . والفهم هو طريق الحرّيّة – أو الخلاص . أمّا الجهل فأبشع ثماره وأمرّها البغض . والبغض والحرّيّة نقيضان لا يجتمعان . لذلك كان الحديث عن الحرّيّة في عالم يعشّش فيه البغض وما يولّده من خداع ونفاق ضرباً من التمويه والتخدير .

أنقول إذن إن المسيحيّة ذهبت صرخة في واد ، ونفخة في رماد ؟ لا . وألف لا . فحسبها أن تضرم في القلوب الشوق إلى تحقيقها . وليس عليها ، ما بين ليلة وضحاها ، أن تجعل من الأقزام عمالقة ، ومن العميان مبصرين ، ومن السّلاحف نسوراً . حسبها – وحسب أيّ رسالة – أن تكون خميرة تفعل فعل السحر في قلوب الأفراد فتأتينا بأمثال أوغسطينوس وفرنسيس الأسيزي وجيوردانو برونو وأبي بكر الصدّيق وعليّ بن أبي طالب ، وبوذا ولاوتسو وراما كريشنا وتولستوي وغاندي وغيرهم ممّن أدركوا الحرّيّة الحقّة أو قطعوا أشواطاً بعيدة إليها . أمّا الجماهير في كلّ زمان ومكان فتخميرهم لا يتمّ إلاّ ببطء يكاد يبعث اليأس في قلوب قادتهم .

ولكنّهم أبداً يتخمّرون ما امتدّ بهم حبل الزمان. وحبل الزمان أمتن من أن يقرضه هوس المتهوّسين، وأطول من أن تطويه لجاجة الجاهلين.

القوة الثالثة

عندما يتحدّث رجال السياسة في هذه الأيّام عن « القوّة الثالثة » فإنّهم يعنون بها كتلة من الدول التي لا تنقاد في سياستها إلى معسكر موسكو أو معسكر واشنطن ، بل تشكّل نقطة التوازن بين الاثنين . وبذلك تغدو . في اعتقادهم . دعامة للسلم.

أمّا القوّة التي أحدّثك عنها فأبعد ما تكون عن تلك التي يحدّثك عنها السياسيّون . إنّها النظام الذي له الكلمة الفصل والحكم الأخير في كلّ ما يجري ضمن الزمان والمكان ، بما في ذلك نزاع الإنسان مع نفسه والطبيعة ، ونزاع الإنسان مع الإنسان ، ونزاع جماعة أو جماعات من النّاس بعضها مع بعض . وهذه القوّة قلّما يحسب لها السياسيّون أيّ حساب . وإن قام بينهم من يفسح لها في تفكيره أيّ مجال دعاها « قضاء » أو « قدراً » أو « مصادفة عمياء » أو دعاها « الزمان » واكتفى بالقول : « الزمان كفيل بحلّ هذه المشكلة أو تلك التي استعصى علينا حلّها . » كأن الزمان يعقل ويفكّر ويهتم أشدّ الاهتمام بكلّ كبيرة أو صغيرة من مشكلات النّاس !

لقد بلغ الغرور من رجال السياسة حدّاً باتوا معه يعتقدون

أنّهم وحدهم يسوسون النّاس ويقدّرون لهم حظوظهم وظروف حياتهم في معزل عن كلّ قوّة وفطنة غير قوّتهم وفطنتهم . فكأنّهم هم الذين ابتدعوا أجساد النّاس وأرواحهم، وصنّفوا غرائزهم وميولهم وأخلاقهم ، وعيّنوا لكلّ واحد منهم وظيفة بعينها ، ثمّ راحوا يثيبونهم ويعاقبونهم على قدر ما يحسنون أو لا يحسنون القيام بوظائفهم .

والذي نعرفه ، ويتجاهله رجال السياسة ، هو أن النّاس يشكّلون قسماً ضئيلاً جدّاً – نقطة في بحر – من الكون الذي لا يدركون له بداية أو نهاية ، والذي لم يكن لهم أيّ ضلع في تكوينه . وأنّهم ، مهما حاولوا ، لا يستطيعون أن يحيوا لحظة واحدة منفصلين أو مستقلّين عن الكائنات والقوى التي تكتنفهم من كلّ جانب – منظورها وغير منظورها ، قريبها وبعيدها ، كبيرها وصغيرها ، حيّها وغير حيّها . فنشاطهم موصول أبداً بنشاطها ، وحركاتهم بحركاتها ، وغاياتهم بغاياتها ، وبقاؤهم ببقائها . ولا محيص لهم عن مسايرتها ومطاوعتها والانسجام معها إلى أقصى حدود الانسجام . وإذن فالذي يسوس النّاس حقّاً هو غير ملوكهم ورؤسائهم ونوابهم وقضاتهم وباقي المتزعمين فيهم . إنّه الذي يسوس النملة والعصفور ، والنعجة والذئب ، والعشبة والأرزة ، والحصاة والجبل ، وقطرة الطل والأوقيانوس ، وكلّ ما في الأرض

من كائنات ، وفي الفضاء من شموس وأقمار ومجرّات يبعد بعضها عن عالمنا ملايين السنين الضوئيّة . ولأن ساسة النّاس ما خرجوا عن كونهم بعضاً من النّاس فهم كذلك مسوسون إذ يتوهمون أنّهم سائسون . فحريّ بهم أن يحسبوا لسائسهم حساباً .

ومن هو – أو ما هو – هذا الذي يسوس النّاس ، وساسة النّاس ، وجميع ما في الكون اللامتناهي ؟

إن مجرّد تسميته تحديد له . وهو غير محدود . فما النّفع من الأسماء نختلقها له فلا تلبث أن تغدو أقفالاً لمداركنا ، وأقفاصاً لأشواقنا ، ومزالق لخيالنا ، وشكائم لإرادتنا ، وحراباً نطعن بها بعضنا بعضاً في السرّ والعلانية ؟ إلاّ أن النّاس ، والسواد الأعظم منهم لا يزال من التفتّح الروحي في سنّ الطفولة ، يصرّون على تسمية الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة تسهيلاً للتفاهم فيما بينهم . ثمّ لا يلبثون أن يركبهم الوهم بأنّهم باتوا يعرفون ما يسمّون . كأن الاسم وحده هو تعريف كافٍ للمسمّى . هكذا يقول أحدهم « بحر » أو « برق » أو « زنبقة » أو « إنسان » فيظن أنّه يعرف ما هو البحر والبرق والزنبقة والإنسان . وهكذا قالوا « البعل » و « يهوه » و « كريشنا » و « فيشنو » و « الطاو » و « أورمزد » و « زفس » و « جوبيتر » و « الله » وغيرها وغيرها ليدلّلوا بهذه الأسماء

على القدرة التي من وراء الطبيعة . فباتوا يحسبون أنّهم عرفوا تلك القدرة ، ثم راحوا يصوّرونها أو يتخيّلونها كلٌ على هواه . مثلما راحوا يسترضونها ويستعطفونها بشتّى الذبائح والصلوات .

لذلك يصعب عليّ وأنا في مجال الحديث عن القدرة التي تسوس الكون أن أُطلق عليها أيّاً من الأسماء التقليديّة مخافة أن يسيء القارىء فهمي فيحسبني أحدّثه عن إله همّه الأكبر أن يحصي على النّاس جميع حركاتهم وأفكارهم وشهواتهم – حتى أنفاسهم – فيثيب الصالحين منهم بغبطة الجنّة ويعاقب الطّالحين بنار جهنّم . أمّا ولا مناص لي من تسميتها تسهيلاً للتفاهم بيني وبين القارىء فسأدعوها « النظام الكوني » .

ليس عليك أن تكون فيلسوفاً لتدرك أنّك تعيش في عالم يهيمن عليه النظام في كلّيّاته وجزئيّاته . ولولا أنّه كذلك لما كان لأيّ عضو في جسدك العجيب أن يقوم بوظيفته يوماً بعد يوم ، وعاماً تلو عام . ولا كانت لك الثقة من أن شمساً تغرب عنك في هذا المساء ستعود فتشرق عليك في الصباح التالي . أو أن حبّة قمح تودعها التراب في الخريف ستنبت سنبلة في الربيع . أو أن طفلاً يولد لك اليوم سيغدو رجلاً أو امرأة بعد سنين . فأنت في كلّ ما تعمل وتفكّر وتشتهي إنّما تطاوع نظام الكون فيك وفي الكائنات من حواليك .

لذلك كان عليك أن تعرف هذا النظام لتطاوعه عن فهم وعن رضى فلا تشقيك المطاوعة . بل تكون لك مصدر قوّة وطمأنينة . ولذلك ترانا – معشر النّاس – ندأب بغير انقطاع على تفهّم ذلك النظام كيما نسير معه لا ضدّه .

من هنا دياناتنا وفلسفاتنا وعلومنا وفنوننا . فهل هي غير محاولات منّا لسبر أغوار النظام الكوني وأسراره كيما يتاح لنا أن نتجنّب الأخطاء النّاجمة عن جهله ومعاندته ؟ وهذه الأخطاء – لا غيرها – هي التي تحمل إلينا الوجع والعذاب والموت . وهي التي دعتها بعض الكتب « الخطيئة » . فالخطيئة ليست ذلك « البعبع » الذي يصوّرون . إنّها خطأ التلميذ في القراءة والكتابة قبل أن يتقن فن القراءة والكتابة . وخطأ الطفل يلثغ قبل أن يتعلّم الكلام . ويسقط مئات المرّات قبل أن يتعلّم المشي . ومن حقّ كلّ متدرّج في أيّ فن أن يرتكب الأخطاء قبل أن يملك ناصية فنّه . ونحن متدرّجون في درس النظام الكوني . فلا تثريب علينا إذا نحن ارتكبنا الأخطاء تلو الأخطاء في فهمه وتطبيقه .

إلاّ أنّنا نرتكب أفدح الخطإ بحقّ أنفسنا إذا نحن نفينا من تفكيرنا وجود النظام الكوني ورحنا نتوهّم أن مقاليد حياتنا في أيدينا وحدنا . وأن في استطاعتنا توجيهها حسبما نشاء . فها هو الواقع يسفّهنا ويسخر بادّعائنا .

هل عرف التاريخ حرباً انتهت إلى ما كان يتوقّعه المحاربون بالتمام ؟ لكنّم اندثرت ممالك وقامت ممالك . أنقول إن الذين اندثروا إنّما اندثروا حسب « خطة مرسومة » وضعوها هم ؟ أم نقول إن الممالك التي لم تكن فكانت إنّما قامت طبقاً لخطة وضعتها هي ؟ كم من اختراع أو اكتشاف أو حدث تاريخي جاء نتيجة لما يدعونه « مصادفة » وما هو بالمصادفة ؟

أهي « المصادفة » أن تعثر بنت فرعون على لقيط يهودي فتشفق عليه وتأخذه إلى قصر والدها حيث ينمو ويترعرع ، فلا يلبث أن يقضي على والدها وجيوشه ، وأن يؤسس ديناً جديداً ومملكة جديدة يغيّران مجرى التاريخ ؟

أم هي « المصادفة » أن يولد للملك صغير في بلاد الهند طفل يدعوه « سيدهارتا » فيمضي على ميلاده ألفان وخمسمئة من الأعوام ويبقى اسمه وذكره ، وتبقى تعاليمه تسيطر على عقول وقلوب مئات الملايين من النّاس ؟

أم هي « المصادفة » أن ينجو منذ ١٩٥٦ سنة طفل اسمه يسوع من سيوف جلاّدي هيرودوس ليعيش ثلاثة وثلاثين عاماً لا أكثر تمكن في نهايتها من أن يرسل في الأرض تيّاراً راح يمتدّ ويتّسع إلى أن غمر نصف الأرض وخلق حضارة جبّارة ما شهدت مثلها الأرض من قبل ؟

أم هي « المصادفة » أن يقوم في مكّة المغمورة ، النائية ،

يتيم يدعى محمّداً فيناصبه ذووه العداء ، ويطردونه من بيته ومدينته ، وينصبون له الفخاخ والأحابيل ليودوا بحياته ، فينجو من فخاخهم وأحابيلهم ، وتصبح مكّة قبلة الملايين من تبّاعه ، ويذاع اسمه بالتهليل والتكبير من آلاف آلاف المآذن في المشارق والمغارب ؟

ما خطر في بال كولمبوس يوم أبحر من إسبانيا طمعاً باكتشاف طريق جديد إلى الهند أنّه سيكتشف عالماً جديداً ، وأنّ اكتشافه سيغيّر وجه الأرض ويدفع بالتاريخ والإنسانية في مجارٍ جديدة . أنقول إن اكتشاف أميركا كان « مصادفة » لا غير ؟

ولا خطر في بال ذي القرنين أنّه سيموت وفتوحاته لمّا تنتهِ بعد . ولو أنّه لم يمت يوم مات لكان تاريخنا غير ما هو اليوم . كذلك قل في ولادة أيّ عظيم من عظماء الأرض وموته. بل في كلّ ما حدث ويحدث وسيحدث في الأرض وغير الأرض . فإن صحّ أن نعزو بعضه إلى المصادفات صحّ أن نعزوه كلّه . إذ لا يكون نظام حيث تكون المصادفة . ولا تكون مصادفة حيث يكون النظام . فالاثنان يتنافيان ولا يجتمعان ولولا أنّنا نشهد النظام في أنفسنا وفي كلّ ما يقع تحت حواسّنا وفي متناول عقلنا وخيالنا لكانت جميع علومنا ونُظمنا . وبالتالي حياتنا . ضروباً من البلاهة . أو الجنون ،

أو بناء أبراج في الهواء . فما هي خبرتنا اليوميّة ، وعلومنا الطبيعيّة من فيزياء وكيمياء ونبات وحيوان وعلوم أحياء إن لم تكن تفتيشاً عن النظام ، والسنن التي يتمشّى عليها كيما يتاح لنا تسيير حياتنا بموجبها ، فنبني المساكن والجسور ، ونغرس الأشجار ، ونزرع الحبوب والبقول ، ونسيّر السفن في البحار ، والطيّارات في الأجواء ، ونقيم السدود في الأنهار ، لتولّد لنا الكهرباء ، ونعالج الذرّة فنطلق الطاقة الهائلة المحبوسة في نواتها إلخ إلخ ؟ إن هذه جميعها اعتراف علني منّا بوجود النظام الذي علينا أن نفهمه فنسايره . لأن سلطانه فوق سلطاننا . وكلّ معاندة نبديها له تؤدي بنا حتماً إلى الفشل الذريع والوجع الأليم .

ولأن الأوجاع تلازمنا من المهد إلى اللّحد فمعنى ذلك أنّنا ، وإن عرفنا جانباً من طبيعة النظام الكوني ، ما نزال نجهل جوانب كثيرة منه . فندعو بعضها « مصادفات » ونمضي في سبيلنا وقد عقدنا هدنة أو مصالحة مع الجهل . وذلك هو منتهى الكسل والخزي والعار . ولو أنّنا كنّا عنيدين في تفتيشنا عن طبيعة « المصادفات » ومصادرها ومعانيها عنادنا في التفتيش عن طبيعة الجاذبيّة والحرارة والنور والعناصر التي تتركّب منها المادة لوجدنا أن ما ندعوه « مصادفات » ليس سوى جانب أو جوانب من النظام الكوني لا تنقاد للتحليل

والتعليل في مختبراتنا الفيزيائيّة والكيميائية . إنّها . في الغالب ، الجانب الخلقي . أو الروحي . من النظام الكوني . وهو جانب له من الصلابة والثبات مثل ما للجانب المادي سواء بسواء . وفعله ينبسط على الأحياء دون غيرهم من الكائنات . وعلى العاقلين منهم أكثر منه على غير العاقلين . لأن للعاقلين إرادة وفكراً ومقدرة على التمييز ليست لغير العاقلين . وهم مطالبون بما يريدون ويفكّرون ويميّزون . والنظام الكوني يقضي عليهم بأن يحصدوا ما يزرعون . وأن يعاملوا بمثل ما يعاملون .

وما أكثر ما يزرع النّاس فينسون ما زرعوا . إلاّ أن النظام الكوني لا ينسى . فيردّ إليهم غلّة الذي زرعوه . وقد يكون حسكها وزؤانها أكثر من حبّها بكثير . فيذهلون ويصعقون ويتحرّقون ويولولون . وما أكثر ما يلجأ النّاس في معاملتهم بعضهم لبعض إلى القسوة والعنف والنفاق والبغض والحسد والطمع والمكر وما إليها . فإذا ارتدّت معاملتهم إليهم نادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور . ناسين أن هذه كلّها قد صدرت عنهم . ولكن النظام الكوني لا ينسى . فيردّ إليهم ما صدر عنهم لعلّهم يتعلّمون فيعاملون النّاس والخلائق غير ما يعاملون .

ولا بدّ من القول ههنا إن النظام الخُلُقي ، أو الروحي ، يسري على الجماعات سريانه على الأفراد . فحيثما اشتركت

جماعة من النّاس في نيّات ، أو أفكار ، أو اتجاهات ، أو أعمال بعينها ، بات عليها أن تجني النتائج المترتّبة على نياتها وأفكارها واتجاهاتها وأعمالها المشتركة ، كلٌّ على قدر نصيبه فيها . فما جارى منها النظام كانت نتيجته خيراً . وما خالف منها النظام كانت نتيجته شرّاً . والجماعة قد تكون شركة تجاريّة أو فنيّة أو دينيّة . مثلما قد تكون أسرة ، أو بلدة ، أو دولة ، أو حلفاً من الدول ، أو الإنسانيّة على بكرة أبيها .

لذلك انقرضت أمم بكاملها من على وجه الأرض . ولذلك تبدّد اليهود في جميع أنحاء المعمور ، ولن تقوم لهم دولة جديدة ما داموا يبنونها على عين الأسس التي بنوا عليها دولتهم القديمة . ولذلك انهارت الممالك التي قامت بحدّ السيف ، وتنهار اليوم الدول التي تعيش بالاستعمار والاستثمار ، وستنهار كلّ دولة تشتري كيانها وسلطانها بدماء الغير ومذلّتهم أو بالمكر والعسف والمال والدهاء .

وإنّه لمن المؤلم حقّاً أن نرى ساسة النّاس وقادتهم في شتّى الميادين يتعامون عن الجانب الخُلُقي ، أو الروحي ، من النظام الكوني . فلا يقيمون له وزناً ، ولا يحسبون له حساباً . فيمضون يزرعون الشّقاق حيث يرجون أن يحصدوا الوفاق ، والحرب حيث لا ينفكّون يطبّلون ويزمّرون للسّلم . ويثابرون على تقسيم الأرض التي هي إرث للنّاس أجمعين ، وعلى إقامة

التخوم المصطنعة بين الشعوب : فتخوم جغرافيّة ، وتخوم عرقيّة ، وتخوم تجاريّة وصناعيّة ، وتخوم ثقافيّة ، وتخوم دينيّة ، إلى آخر ما هنالك من التخوم التي خلقها الجهل إجمالاً ، وجهل النظام الكوني على الأخص . إنّهم لا يفتأون يعكّرون الجوّ الذي يعيش فيه النّاس ثمّ يعجبون لذلك الجو لا يصفو من تلقائه ، ولا تصفو حياتهم وحياة النّاس . وإنّهم لا يتورّعون عن إراقة الدّماء « حقناً للدّماء » كما يدّعون . وقد فاتهم أن الدّماء لا تكفّر عنها إلاّ الدّماء . أمّا مؤتمراتهم السلميّة ، وأمّا معاهداتهم فشعوذات ومخرقات ما دامت النيّات من ورائها تعاكس النظام الخلقي – بل تطعنه في الصميم . ومتى صفت النيّات فأيّ حاجة إذ ذاك للمعاهدات ؟

وهكذا يبدو أن النّاس ما برحوا بعيدين جدّاً – أو قل قاصرين – عن تفهّم النظام الكوني والجانب الخلقي . أو الروحي ، منه . لذلك لن يُكتب الاستقرار لأيّ عمل يأتونه ، أو نظام يبتدعونه . فلا الديموقراطيّة ، ولا الرأسماليّة ، ولا الشيوعيّة ، ولا أيّ مبدإ أو مذهب يستطيع أن يقطع شوطاً من الزمن من غير أن يدبّ فيه الانشقاق نتيجة لانحرافه أو انحراف تبّاعه ، في هذه النّاحية أو تلك ، عن النظام الكوني الذي لا يطيق أيّ انحراف . وكلّ محاولة من جانب القائمين عليه لتوجيهه في اتجاه واحد ، وللمحافظة عليه سليماً من

التأويل والتعديل والتحوير . محاولة لا حظّ لها من النّجاح البتّة . لأنّها لا تتّفق وطبيعة الجماهير . فليطمئن خصوم الرأسمالية فهي سائرة إلى الزوال . وليطمئن أعداء الشيوعيّة فهي في طريقها إلى التفسّخ شيعاً لا تنضوي تحت علَم واحد ، ولا تأتمّ بإمامة واحدة .

أمّا الذي سيقضي على الرأسماليّة بالزوال وعلى الشيوعيّة بالتفسّخ فليس أضداد تلك أو هذه ، بل « القوّة الثالثة » التي لا تتحصّن في موسكو ولا في واشنطن ، وتستخدم الاثنتين لغايات لا تدركها أيّ منهما .

علاقتي بروسيا

يتهرّب العلم الحديث من التصدّي لأسرار كثيرة تجابهنا في كلّ لمحة من حياتنا وتتركنا من الحيرة في غياهب . من هذه الأسرار سرّ العلائق البشريّة : كيف تنشأ ، وكيف تتطوّر . فتغدو هنا بنوّة أو أبوّة أو أمومة . وهناك صداقة متينة أو عداوة مريرة . وتبدو هنالك كما لو كانت من التفاهة والفتور بحيث لا نقيم لها أقلّ وزن . وإذا بها تصبح بعد حين حجر الزاوية في حياتنا . وما أكثر ما نظنّ أن علاقة بيننا وبين إنسان من النّاس أو بلد من البلدان قد انتهى أجلها وانقطعت أواصرها . وإذا بها تتجدّد وتمتدّ فلا نبصر لها نهاية .

إمّا أن تكون العلائق البشريّة خاضعة لنظام أسوة بغيرها من العلائق بين سائر الكائنات . وإذ ذاك تحتّم علينا أن ندرس ذلك النظام قبل أن ندرس النظام الذي يسيّر الكواكب في أفلاكها . فهو ألصق بنا وبحياتنا اليوميّة من حركات زُحَل وعُطارد . وإمّا أن تكون هذه العلائق خارجة عن كلّ نظام . وإذ ذاك فكلّ جهد نقوم به في سبيل تنظيمها لجهد باطل ، مهدور . أمّا أن نعزوها إلى المصادفات الاعتباطيّة ، أو إلى

الأقدار العمياء . ثمّ أن نمضي نخبط في أعمالنا وأقوالنا وجميع المسالك التي نسلكها خبط عشواء . فليس في ذلك ما يشرّفنا على الإطلاق . بل فيه ما يجعل من حياتنا أغنية في بيت طرشان ، أو شمعة في بيت عميان .

حسبي ما قلته في الفصل السابق عن النظام الكوني ليفهم القارىء أنّني لا أستثني العلائق البشريّة من سلطان ذلك النظام . فما وُلد إنسان من أبوين بعينهما ، وفي مكان بعينه ، وظروف بعينها اعتباطاً ولغير ما أسباب . ولا تصاحب النّاس وتعادوا ، وحلّوا وارتحلوا ، وتزاوجوا وتناسلوا إلاّ مسوقين بنظام في حياتهم تحجبت جذوره البعيدة عن مداركهم وبانت لهم نتائجه المباشرة لا غير . إلاّ أنّني لن أتبسّط في الحديث عنه أكثر ممّا تبسطت . وأنتقل إلى الحديث عن علاقتي بروسيا.

كنت بين الخامسة والسادسة من عمري عندما باشرت الطائفة الأرثوذكسيّة في مسقط رأسي – بسكنتا – تشييد بناء ضخم في الجهة الشرقيّة من البلدة . وفهمنا نحن الصغار أن البناء سيكون مدرسة « مسكوبيّة » تغنينا عن المدرسة الطائفيّة الحقيرة حيث كان معلّمان لا أكثر يتولّيان كشف أسرار القراءة والكتابة لنا ولا عدّة لهما إلاّ « المزامير » (مزامير داود النبي) وإلاّ قضيب من التوت أو الدلب .

وانتهى البناء عام ١٨٩٦ . فانتقلنا إليه ، وشعرنا في الحال

كأنّنا انتقلنا من الجحيم إلى النعيم . فغرف التدريس واسعة وجميلة ونظيفة . والمقاعد فيها من طرازٍ ما عرفناه من قبل . فمقعد للجلوس يتصل بمتكإ للكتابة . وأمام كلّ تلميذ محبرة من النحاس مركّزة في المتكإ . وفي صدر الغرفة دكّة عالية وطاولة من خلفها كرسي للمعلّم . وعلى حائط من حيطان الغرفة لوح أسود في أسفله طباشير للكتابة وماحٍ لما تكتبه الطباشير . وفي منتصف البناء ردهة طويلة فسيحة يجتمع فيها التلاميذ للصلاة قبل الابتداء بالدروس وعند الانتهاء منها . وفي جانب من تلك الردهة مغاسل ومناشف وصابون وأمشاط . وفي الجانب المقابل ، عند أعلى الحائط من الخارج ، جرس صغير ، عذب الرنّة ، كان يدعونا إلى الدروس في الساعة الثامنة صباحاً ، ويؤذن بانتهائها في الرابعة بعد الظهر .

والأبهج من كلّ ذلك أن الكتب والدفاتر والأقلام كانت توزَّع علينا بالمجّان ، وأن المدرسة ، من بعد أن كانت للذكور وحدهم ، أصبحت مختلطة للذكور والإناث ، وقد قفز عدد المدرّسين فيها من اثنين إلى تسعة ، بينهم ثلاث معلّمات . وقفز عدد التلاميذ من العشرين إلى ما يقارب المائتين ، وعدد الصفوف من صفّين إلى ثمانية تبدأ بـ « البستان » وتنتهي بالصرف والنحو والجغرافيا والحساب والتاريخ ومبادىء اللغة الروسيّة، وتشمل الرياضة البدنيّة . والأهم ، الأهم في نظرنا ،

ان القصاصات بالقضيب والكفّ والرِّجل أصبحت محظورة تحت طائلة العقاب للمعلّم الذي يلجأ إليها . أمّا مدير المدرسة فكان دائماً من خرّيجي دار المعلّمين الروسيّة في النّاصرة . وكان أقصى ما أتمنّاه لو أُصبح يوماً مديراً لمدرسة « مسكوبيّة » .

ما كان لنا نحن الصغار أن نعرف من أين جاءتنا تلك النعمة وكيف . وكلّ ما عرفناه أن « المسكوب » قوم أشدّاء وكرماء يحكمهم قيصر تهتزّ لكلمته جميع ملوك الأرض . وأنّهم يقطنون بلاداً شاسعة وباردة في الشمال . وأنّهم « روم » مثلنا . ولذلك يعطفون علينا ويحرصون على الدفاع عنّا وعن « ديننا » الذي هو الدين الوحيد الصحيح . أمّا أن دولتنا « العليّة » كانت قد بلغت من الهرم والتفكّك حد الانحلال ، وأن الدول الغربيّة ، تحت ستار الدين ، راحت تتسابق إلى بسط نفوذها في أجزاء تلك الدولة المتداعية ، فكان لنا فيض من المدارس الفرنسيّة والإنكليزيّة والألمانيّة والإيطاليّة والأميركيّة والروسيّة وغيرها في فلسطين وسوريا ولبنان — أمّا ذلك كلّه فقد كنّا غافلين عنه وغير شاعرين بوجوده .

مرّة أو مرّتين في كلّ عام كان يأتينا مفتّش روسي وبصحبته ترجمانه . وكنّا ندعوه « النّاظر » أو « المناظر » ، ونشعر يوم مجيئه أن مدير المدرسة وباقي المعلّمين والمعلّمات كانوا يتهيّبونه كما لو كانت حياتهم من يده . فيرتبون المدرسة

أحسن الترتيب . ويوصوننا أن نلبس خير ما نملك من الثياب ، ويخرجون بنا إلى ساحة المدرسة حيث ينظموننا في صفوف متناسقة ، ويلقننا المدير عبارة ترحيب باللغة الروسيّة مؤدّاها : « نطلب لكم العافية ونهنئكم بسلامة الوصول » . حتّى إذا أطلّ النّاظر الأشقر رحنا ننغم تلك العبارة تنغيماً مضحكاً وبأعلى أصواتنا

ومرّة في كلّ سنة — في السادس من كانون الأوّل — كنّا نحتفل احتفالاً كبيراً بعيد القدّيس نقولا شفيع الأمبراطور نقولا الثاني . فنقيم الصلوات في الصباح ، وفي المساء تجتمع الطائفة بكبارها وصغارها ، رجالها ونسائها ، لتشترك معنا في مهرجان كبير تتخلّله الأغاني والزغاريد والرقص والأسهم الناريّة والهتافات العالية باسم صاحب الجلالة المالك سعيداً في بطرسبرج القصيّة : « الله ينصره ! زيتو ! ! ! » ترى أما كانت هتافاتنا تبلغ أذن السلطان عبد الحميد على شاطىء البوسفور ونحن ما نزال محسوبين في جملة رعاياه ؟

في صيف ١٩٠٢ ، ولم أكن قد أكملت بعد الثالثة عشرة من عمري ، قيل لي إنّني سأسافر في أيلول إلى الناصرة لمتابعة دروسي هناك في « دار المعلّمين » الروسيّة ، وذلك على نفقة « الجمعيّة الأمبراطوريّة الروسيّة الفلسطينيّة » . فلم أكد أصدّق أن الحظ كان كريماً معي إلى ذلك الحدّ . إذن ستتحقّق

أمنيتي فأصبح مدير مدرسة « مسكوبية » بعد ستة أعوام !

بلغتُ الناصرة – المدينة الفلسطينيّة التي ربي فيها يسوع – بعد سفرة برّاً وبحراً استغرقت خمسة أيّام . وبإمكانك أن تقطع اليوم المسافة عينها بالسيارة في خمس ساعات أو ستّ . فوجدتني في مدرسة تضمّ نحواً من ٤٥ طالباً ، أصغرهم في مثل سنّي وأكبرهم دون العشرين بقليل ، وجميعهم في لباس متشابه ، يأكلون ويشربون وينامون ويتعلّمون بالمجان ، وهم موزّعون على ثلاثة صفوف ، تستغرق الدراسة في كلّ منها عامين . وفهمت أن أولئك الطلاّب قد اختيروا مثلي من مدارس روسيّة ابتدائيّة في أنحاء سوريا وفلسطين ولبنان . أمّا الأساتذة فكانوا من الروس ما عدا أستاذ اللغة العربيّة ومدير المدرسة وأستاذين آخرين . والثلاثة الآخرون كانوا عرباً ولكنّهم تخرّجوا من معاهد عالية في روسيّا .

كانت الدروس تلقّن بالروسيّة ما خلا اللغة العربيّة وآدابها ، والتاريخ العام والتعليم المسيحي . ولعل دار المعلّمين الروسيّة في الناصرة كانت المدرسة الأولى في العالم العربي التي اهتمّت بتدريس تاريخ الأدب العربي وفن التربية والتعليم . ولأنّه لم يكن قد قام بعد من العرب من يكتب تاريخ الأدب العربي بطريقة جامعة تصلح للتدريس في المدارس فقد كنّا نستعين بترجمة خطيّة لكتاب وضعه في الموضوع أحد

المستشرقين الروس ، وكان على كلّ منّا أن ينسخ التّرجمة بنفسه لنفسه .

لم يطل بي المقام في الناصرة حتى عرفت أن المدرسة كانت تختار في كلّ عامين واحداً من طلاّبها ترسله إلى روسيا لمتابعة دروسه هناك في إحدى السمنارات ، ومن بعدها في إحدى الأكاديميات الروحيّة . وذلك على نفقة الجمعيّة الأمبراطوريّة الفلسطينيّة على أن يكون الطالب قد أنهى السنة الرابعة بتفوّق فبتّ أتوق في سرّي إلى مثل ذلك الشرف وتلك النعمة . ولكنّني ما كنت أجرؤ أن أتمادى في أحلامي مخافة أن تدركني الخيبة . فقد كان في صفّي مَن علاماتهم في الدرس والسلوك كانت تضاهي علاماتي .

ما إن تمكّنت ، إلى حدّ ، من قواعد اللغة الروسيّة ، وحفظت قسطاً لا بأس به من مفرداتها ، حتى انطلقت أطالع في المجلات الروسيّة التي كانت تصلنا ، وأقتحم كتّاباً من عيار دوستويفسكي وتولستوي . وأذكر أنّني حاولت مرّة قراءة « الجريمة والعقاب » فكنت أشعر كمن ينقب عن كنز عظيم وليست له العدّة الكافية للتنقيب . وهكذا تركت الرواية من بعد أن أتيت على آخرها وبي ما يشبه الحنق على نفسي لأنّني ما استطعت أن أفهم كلّ ما فيها وأسبر أغوارها . لقد قام بيني وبين الكنز حاجز من اللغة كان لا بدّ لي من تخطّيه .

إلاّ أن مطالعاتي الروسيّة ، وإن تركت في قلبي غصّة بسبب نقص في معارفي اللّغويّة ، لم تلبث أن أثارت إعجابي بالأدب الروسي ، وحسرتي على الأدب العربي بالنسبة إليه . فقد تكشّف لي فقرنا الفاضح إلى أدب ينبع من الحياة ، وأدباء لا يتلهّون بالقشور عن اللّباب . ومن بعد أن كنت أحسد الكثير من أدبائنا وشعرائنا المعروفين في ذلك الزمان وأتمنّى لو أكون كواحد منهم ، بتّ أخجل بهم وأتمنّى لو أستطيع أن أكتب كما يكتب هؤلاء الروس .

نشبت الحرب الروسيّة ـ اليابانيّة إبّان دراستي في الناصرة . وإني لأذكر بأيّ لهفة كنّا نتسقط أخبارها على قلّة الوسائل في ذلك الزمان لنقل الأخبار . فالراديو كان لا يزال في ضمير الغيب . والصحيفة الوحيدة الّتي كانت تصلنا كانت تأتينا بعد أسبوع أو أكثر من صدورها في بيروت البعيدة . والصحف الروسيّة كانت تصلنا بعد شهر من تاريخ صدورها . وعندما بلغنا خبر الفاجعة الّتي حلّت بالأميرال مكاروف ودارعته « بتروبافلوفسك » في ميناء فلاديفوستوك كان له وقع الصاعقة في نفوسنا . وكان في الناصرة شيخ أمّي ، طاعن في السنّ ، يتعشّق روسيا وذكرها حتّى الجنون . وكان في كلّ يوم يأتي إلى المدرسة ليقف من التلاميذ على آخر أنباء الحرب . فكان الخُبثاء منهم ، وقد عرفوا نزعته ،

يشوّهون له الأخبار عمداً . فإن أرادوه أن يبكي وينتحب قالوا له إن اليابان ضربت روسيا ضربة قاضية في معركة كيت وكيت . وإن أرادوه أن يرقص من الفرح قالوا له العكس . وقيل للشيخ ذات يوم إن الأسطول الياباني أغرق الأسطول الروسي على بكرة أبيه . فلم يصدّق . وهرول إلى المدرسة يستقصي الخبر . فما كان من أحد التلاميذ إلاّ أن أخذ جريدة قديمة وراح يقرأ له الخبر معكوساً بالتمام . فأشرقت أسارير الشيخ المتجعدة ، واغرورقت عيناه بدموع الفرح ، ونهض لتوّه يرقص ويقلّب عصاه في يده كأنّها السّيف ، ويهتف بملء حنجرته ، وبصوته المتهدّج : « زيتو ! الله ينصره ! ! ! »

واندلعت الثورة في روسيا إثر الحرب مع اليابان . فجاءت أخبارها تنكأ الجروح التي تركتها هزائم الروس في قلوبنا . ولم نكد نصدّق أن شعباً كالشعب الروسي يثور ضدّ حكومة أمبراطور كالأمبراطور نقولا الثاني الذي كان في نظرنا عنوان المجد والسؤدد ، والعدل كذلك . واغتيل الغرندوق سرجيوس ، رئيس الجمعيّة الأمبراطوريّة الفلسطينيّة التي كانت تسهر على تربيتنا وتثقيفنا ، فجاء اغتياله صدمة عنيفة لنا كادت تزعزع إيماننا بروسيا وعظمتها . وأقامت المدرسة حفلة تأبينيّة لرئيس الجمعيّة المغتال تبارى فيها الشعراء والخطباء من الأساتذة والطلاّب وكلّهم يشيد بمناقب الراحل الكبير وعظمته ويطعن

في الجناة الأثيمين الذين استباحوا دمه الزكي . ومن أين كان لنا في ذلك الزمان ، ونحن من شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد في مثل غفلة الطفل ، والعصبيّةُ الدينيّة قد سدلت غشاوة كثيفة على بصائرنا ، أن نفقه معنى الثورة والأسباب التي من أجلها يفرغ صبر شعب من الشعوب فينقلب على أوضاع حياته وعلى حكّامه ؟

وانتهت الامتحانات الأخيرة لعام ١٩٠٦ فراح الطلاّب يستعدون للعودة إلى بيوتهم . وقبل انفراط العقد بيوم واحد جمعنا رئيس المدرسة – وكان رجلاً وقوراً – في الردهة الكبيرة حيث وقفنا صفّاً واحداً ، ووقف هو والأساتذة في صفّ مقابل . ومن بعد أن هنّأنا باجتياز العام الدراسي ، وودّع الذين أكملوا دراستهم وباتوا يترقّبون تعيينهم مديرين لبعض المدارس الروسيّة الابتدائيّة ، ناداني باسمي وأوقفني أمامه ، ووضع يده على كتفي ، ثمّ أعلن بصوت هادىء ، متزن ، أن المدرسة ، تقديراً منها لاجتهادي ، قد اختارتني للدراسة في روسيا في إحدى السمنارات الروحيّة ومن بعدها في إحدى الأكاديميّات الروحيّة . وذلك على نفقة الجمعيّة الأمبراطوريّة الفلسطينيّة ، بما في ذلك نفقات السفر .

لقد كانت تلك اللحظة أسعد لحظة في حياتي .

في روسيا

في أواخر شهر أيلول من العام ١٩٠٦ وقف فتى ما طرّ بعدُ شارباه أمام بناية كبيرة من الآجرّ الأحمر القاتم في مدينة تدعى « پولتافا » من أعمال أوكرايينا . وكانت تُعرف في ذلك الزمان باسم « روسيا الصغرى » . وكان الفتى في بذلة متواضعة ، رماديّة ، هي البذلة الإفرنجيّة الأولى يلبسها من بعد « القمباز » ، وعلى رأسه قبّعة من القش القاسي هي الأولى يعتمرها بعد الطربوش . وكان يحمل في يسراه حقيبة صغيرة احتوت كلّ ما كان يملك من حطام الدنيا : بضعة دفاتر وكتب وقمصان وجرابات . في حين كانت يمناه تفرك أذنيه فركاً موصولاً ، وأسنانه تكاد تصطك من شدّة البرد .

وكان الفتى قد ودّع مسقط رأسه في لبنان منذ زهاء أسبوعين اجتاز في خلالهما جانباً من البحر الأبيض المتوسط ، وبحر إيجه ، والدردنيل ، ومرمرا . والبوسفور ، والبحر الأسود حتى مدينة أوديسّا حيث استقلّ القطار الذي راح

ينهب به السهول والغابات طوال نهارين وليلين قبل أن يبلغ نهاية رحلته . وكانت الصوّر الغريبة تتزاحم في رأسه تزاحم النحل في الخليّة . لقد كان معظم رفاقه في القطار من الـ « مُوجِيكْ » و الـ « جيِدْ »[1] ، وكانت رائحة أجسادهم ، وقد جافاها الماء والصابون ، ورائحة أنفاسهم ، ثمّ رائحة الـ « ماخوركا » التي كانوا يدخنونها وهي من أحطّ أنواع التبغ على الإطلاق ، ما تزال عالقة بثيابه وفي خياشيمه . وكان في طريقه من أوديسّا إلى پولتافا قد مرّ بقرى كثيرة أدهشه شكل الأكواخ القائمة فيها . فأكثرها كان من الطين ، ولاصقاً بالأرض ، ومسقوفاً بالقش ، ومزوّداً بنافذة أو نافذتين لا أكثر . تلك هي الـ « إيزْبا » الروسيّة التي قرأ عنها الكثير إبّان دراسته في الناصرة ، والتي أُتيح له فيما بعد تفقدها عن كثب .

لقد كان يعرف أن صندوق « الجمعيّة الأمبراطوريّة الفلسطينيّة » كانت تغذيه التبرّعات من الشعب في شتّى أنحاء روسيا الشاسعة . وإذن فمن يدري ؟ لعلّ كلّ واحد من أُولئك الـ « موجيك » الذين رافقوه في القطار ، ولعلّ كلّ

[1] كلمة « موجيك » كانت تطلق على الفلاح الروسي قبل الثورة الشيوعية . وكلمة « جيد » على اليهود إجمالا . والكلمتان تنطويان على الكثير من الازدراء والتحقير .

« إيزْبا » وقعت عليها عينه ، ولعلّ الحوذي الذي نقله من المحطة إلى المدرسة ، بل لعلّ كلّ روسي التقاه في طريقه كانوا جميعهم في جملة المحسنين إليه والمساعدين على تربيته وتثقيفه ! كيف لا ؟ والمدرسة التي هو ذاهب إليها لم تكن غير واحدة من عشرات المدارس الروحيّة المجانيّة في روسيا التي شادها « المجمع المقدّس » — وهو السلطة الدينيّة العليا في البلاد — وكان يشرف عليها في معزل عن وزارة المعارف . ومن أين للمجمع المال ؟ — من المؤمنين . وكيفما كان الأمر فها هو الآن في روسيا التي قرأ وسمع عنها الكثير ، والتي أحبّها وبات يحسب القدوم إليها ضرباً من السعادة . وها هو على عتبة المدرسة التي ستحتويه بعد دقائق . وليس يعرف غير الله ماذا يكون نصيبه منها ونصيبها منه .

لقد كان من حسن حظّي أن سبقني إلى السمنار في پولتافا طالب من طلاّب دار المعلّمين في الناصرة . فما كان عليّ إلاّ أن أسأل عنه ليكون دليلي إلى هذا العالم المجهول الذي كنت واقفاً على عتبته ، وكلّي خجل من قبّعة القش التي على رأسي ، والبذلة الرقيقة التي على بدني ، ورجفة البرد التي ازرقّت لها شفتاي ويداي ، في حضرة المعاطف والقبّعات من الجوخ السميك التي كان الطلاّب يدخلون فيها المدرسة ويخرجون منها ويحدجونني بعيون كلّها استغراب واستفهام .

وأخيراً سُرّي عني حالما أطلّ عليّ وجه رفيقي . فتصافحنا وتعانقنا بحرارة ، وقادني رفيقي إلى أحد المسؤولين في إدارة المدرسة حيث أنهيت معاملاتي بسرعة البرق . وما هي إلاّ أيّام حتّى وجدتني واحداً من حوالي ٦٠٠ طالب ، أرتدي البزة السمناريّة وهي كناية عن « جاكيت » من الجوخ الأسود ذات صفّين من الأزرار اللمّاعة الحاملة شارة النسر ذي الرأسين ، وبنطلون من نوعها ، وقبّعة سوداء ، شكلها عسكري ، ودائرها الأسفل من الجوخ الأزرق ، وفي مقدمتها شارة تحمل الأحرف الأولى من اسم المدرسة . فقد كانت لكلّ صنف من أصناف المدارس في روسيا بزّة خاصّة يتميّز بها من سواه .

كان معظم الطلاّب في السمنار من أبناء رجال الاكليروس وكلّهم من ولاية پولتافا ، ما خلا نفراً من الغرباء لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين . بعضهم من بلاد الصِّرب ، وبعضهم من بلاد البلغار ، وبعضهم من مقاطعة « غاليتسيا » التابعة في ذلك الزمان للأمبراطوريّة النمساويّة . وبين هؤلاء الغرباء كان رفيقي السوري وكنت أنا اللبناني . أمّا الأساتذة فكانوا جميعهم من الروس ، وأكثرهم من خريجي الأكاديميات اللاهوتيّة . وأمّا رئيس المدرسة فكان إكليريكيّاً برتبة « أرشمندريت » .

لم يمضِ طويل وقت حتّى أحسستني مالكاً لناصية اللغة ، أتكلّمها بطلاقة ، وأكتبها بسهولة . وحتّى فارقني كلّ شعور بالغربة . فبتّ كما لو كنت قد وُلدت وترعرعت في روسيا . أعرف من عاداتها وأخلاقها وتاريخها مثل ما يعرفه رفاقي وأكثر . وقد ساعدني في ذلك ما رحت أُطالعه بنهم من الأدب الروسيّ . فمن أقاصيص غوغول الساحرة « أُمسيات في مزرعة بالقرب من ديكانكا » ومن ملحمته الهائلة « الأرواح الميتة » عرفت الكثير عن سذاجة الفلاّح الروسيّ ، وتقواه ، وصبره ، وطيب عنصره . ومحبّته لأرضه ، مثلما عرفت الكثير عن خبث مستثمريه . وجشعهم ، وقسوتهم ، وقذارة نفوسهم .

ومن شعر بوشكين وليرمونتوف ونكراسوف أطللت على الكآبة العميقة في النّفس الروسيّة نتيجة للقلق المستبد بها من حياة مقنّعة العينين ، مكبّلة اليدين والرجلين ، وللشوق المتأجّج فيها إلى حياة تبصر طريقها وتسير فيه طليقة ، نشيطة ، آمنة ومؤملة .

ومن روايات تورغينيف الأنيقة استطعت أن أدخل قصور الشرفاء وكبار الملاّكين (بومِيشّيكي) وأن أعرف ما انطوت عليه نفوس معظمهم من إيمان بأنّهم وُلدوا وينبغي أن يبقوا إلى الأبد فوق سائر النّاس . إلاّ أنّهم ، كغيرهم من النّاس ، كانوا ، إلى جانب الملذات ، يتذوّقون شتّى ضروب الآلام ،

وكانوا يؤمنون ويكفرون ، ويحبّون ويكرهون ، ويُكاد لهم ويكيدون ، ويفتّشون عن السعادة وبها لا يظفرون . وفي النهاية يموتون .

وفي روايات دوستويفسكي الرهيبة عايشت المجرمين والمنفيّين في مجاهل سيبيريا ، والمهانين والمنبوذين في عاصمة القياصرة ، وجميع أصناف البشر ، من أنبل المتطلّعين إلى فوق حتى أخسّ الناظرين إلى أسفل . وتحسست إيمان دوستويفسكي بالأمّة السلافية ورسالتها الإنسانيّة ، وبمستقبلٍ أفضل لروسيا تتقلّم فيه أظفار الظلم والاستبداد ، وتتكسّر أنياب الحاجة والمذلّة ، فيتنفّس الشعب بملء رئتيه ، وتكون له الثقة بأنّه لن يعرق ليهزل وليسمن غيره بنتاج عرقه ؛ ولن يسكن الأكواخ ويلبس الأسمال لينعم غيره بالقصور ، ويرفل في الديباج .

وفي كتابات تولستوي عرفتُ كيف يُهدر الدم الروسي أنهاراً في سبيل الدفاع عن أرضه ، وأيّ الآلام الجهنّميّة هي الآلام التي تجرّها الحروب . وعرفت كذلك نزعة الروح الروسيّة إلى السلم والصفح والمحبّة ، وعدم مقابلة الشرّ بالشرّ ، وإلى التفتيش عن الحياة في الموت ، وعن النظام في الفوضى ، وعن السرمدي في ما هو عرضة للتبدّل والتحوّل بغير انقطاع . حتى إن « ياسنايا بوليانا » — بلدة تولستوي — باتت عندي

منارة أستأنس بنورها أيّام كنت أتلمّس طريقي في مهامه الخير والشرّ ، والحياة والموت . فتطغى عليّ من حين إلى حين موجات عارمة من التشاؤم والزهد في النّاس ومسالكهم الملتوية ، وأكاد أقول مع « الجامعة » : « باطل الأباطيل . كلّ شيء باطل وقبض الريح » . ولشدّ ما هزّني خبر اختفاء تولستوي الفجائي من بيته في آخر أيّامه . إذ انّني وجدت فيه دعامة لإيماني المتداعي بقدرة الإنسان الفاهم والمخلص لنفسه على التملّص من أحابيل الدنيا وفخاخها ، والترفّع عن زخارفها ومفاتنها ، وعلى الوعظ والتعليم بالقدوة والمثال أكثر من القلم واللّسان .

أمّا بيلينسكي — سيّد النقّاد الروس بلا منازع — فقد كشف لي عن مواطن الصدق والقوّة والخير والجمال في العمل الأدبيّ ، وعن سموّ وظيفة الأديب ، إذا هو أحسن تأديتها ، بالنسبة إلى نفسه ، وإلى الحياة حواليه ، وإلى الذين يقرأونه . وما من شكّ على الإطلاق في أن ذلك العملاق كان له أكبر الأثر في النهضة الأدبيّة الجبّارة التي شهدتها روسيا في القرن الماضي وأوائل الحاضر .

وأمّا غوركي فقد سلّط أمام ذهني أنواراً كشّافة على زوايا مظلمة من الحياة الروسيّة — حياة المشرّدين والمحرومين والناقمين على نظام يعيشون في ظلّه — بل على كلّ نظام .

إنّهم المنسيّون ، الساكنون « في القاع » ، تسير مواكب الحياة من فوقهم غير شاعرة بوجودهم . فكأنّهم الغبار العالق بأذيالها ، أو النفايات المطروحة في قواذيرها .

وماذا أقول في تشيخوف – سيّد القصّاصين الروس وغير الروس – وفي تصويره الدقيق لجميع نواحي الحياة الروسيّة بكلّ ما فيها من تفاؤل وتشاؤم ، وانبساط وانقباض ، وثروات وثورات ؟

يطول بي المدى إذا أنا رحتُ أعدّد جميع الشعراء والكتّاب الذين جعلوا من روسيا كتاباً مفتوحاً أمامي أقرأ فيه ماضيها وحاضرها ، وأستشفّ معالم مستقبلها ، وأتعرّف إلى نُظمها وعاداتها وتقاليدها ، وأتبيّن مكامن الضعف والقوّة ، والبشاعة والجمال في حياتها ، وأسيح في أرجائها المترامية الأطراف ، فيسحرني منها مداها ، وتدهشني الثروة اللاّمتناهية المدفونة في سهولها وغاباتها ، وفي أنهارها وجبالها وبحارها ، وفي العناصر البشريّة المنثورة على وجه رقعتها اللامتناهية . وأتخيّلها بسكّانها هرَماً هائلاً في رأسه القيصر ، تليه العائلة المالكة ، فالنبلاء وكبار الملاّكين الإقطاعيّين ، فرجال الدين ، فكبار الضباط في الجيش والبحرية ، فالموظفون على أنواعهم ، فالطبقة البورجوازيّة من تجّار ومعلّمين وكتّاب وصحافيّين وفنّانين . وفي أسفل الهرم الفلاّحون والعمّال والمعدمون

والمشرّدون والمنسيون . وهم الكثرة الساحقة التي كانت تحمل البناء كلّه على مناكبها وظهورها . ولـكنّم سألت نفسي : « ترى لو تحرّك الذين في أسفل فماذا يحلّ بالذين في أعلى ؟ »

ما كنت لأسأل نفسي مثل ذلك السؤال لولا شعوري بأنّ الحرم الذي تخيّلته لم يكن محكم البناء . فلا حجارته كانت من مقلع واحد ، ولا الطين الذي يشدّها بعضها إلى بعض كان من النوع الذي يبعث على الاطمئنان ، ولا المهندسون والبنّاؤون الذين أشرفوا على بنائه كانوا من المعرفة والحنكة وبُعد النظر بحيث لا يتركون مجالاً لأيّ خلل . وحسبك أن تلقي نظرة على الحجارة التي شُيّد منها ذلك الحرم لتدرك أنّه لم يكن من القوّة والمناعة في نسبة علوّه وضخامته . فقد كان فيه البيلاروسي، والأوكرايني ، والبولوني ، والاستوني ، واللاتفي ، والليتواني ، والفنلندي ، والتتري ، والكرجي ، والأرمني ، والبخاري ، والأوزبكي ، والتدجيكي ، والكالميكي ، وغيرهم وغيرهم . مثلما كان فيه المتخم والمدقع ، ولابس الديباج والمتدثر بالأطمار، وصاحب الحَول والطَّول والذي لا حَول ولا طَول له على الإطلاق .

لم أكن في حاجة إلى الأدلّة على أن أُسس الحرم الهائل لم تكن من الثبات والاستقرار حيث كان يتمنى الذين في القمّة . فقد كان يكفيني ، وثورة ١٩٠٥ ما تزال ماثلة في الأذهان ،

ان أسمع رفاقي يتحدّثون عنها همساً لأعرف أن كلّ شيء في بلاد القياصرة لم يكن على غاية ما يرام . ولـكـم رأيت البعض من رفاقي يطالع بمنتهى الشغف ، ومنتهى التكتّم ، نسخاً مهرّبة من مؤلفات محرّمة ، كبعض مؤلّفات تولستوي وجميع مؤلّفات « غرتسن » و « كروبوتكين » و « باكونين » وغيرهم ، ونشرات سرّيّة عن الثورة الفرنسيّة والمحاولات الشيوعيّة التي رافقتها . ولكم خرجت ورفاقي في نزهة إلى البرّيّة حيث كنت أُبصر حقولاً شاسعة مزروعة قمحاً أو ذرة أو شمندراً أو غير ذلك . وإذا سألت : لمن هي ؟ يقال لي إنّـها للأمير « شرباطوف » أو للكونت كيت وكيت . وأسمع رفاقي يقولون : « هذا حرام . وهذا لن يدوم . »

ولكم شهدت جماهير من الفلاّحين ، من رجال ونساء ، وفي حمارّة القيظ منكبّين على أكداس السنابل يضربونها طيلة النهار بالعصيّ الثخينة الطويلة ليفصلوا قمحها عن أحساكها ، وليحملوا القمح إلى أهراء مالك الأرض ويحتفظوا منه لأنفسهم بما لا يكاد يقوّم أودهم . فكنت أقول في نفسي : « وهذا حرام . وهذا لن يدوم . »

ولكم رأيت رجال الدين يستغلّون إيمان الذين في أسفل الهرم بالآب والابن والروح القدس ، وخوفهم من نار جهنّم ، وشوقهم إلى بحبوحة النعيم . فيبتزّون أموالهم شموعاً تضاء ،

وبخوراً يُحرَق ، ونقوداً تُطرح في الصواني . وذلك الاستغلال ما كان ينجو منه حتّى الذين في متوسط الهرم وفي أعاليه . فكنت أقول في نفسي : « وهذا كذلك حرام . وهذا لن يدوم . »

نعم . لقد رحت ، وأنا الغريب عن روسيا ، أحسّني كما لو كنت واحداً من تلك الملايين التي تحمل الهرم العظيم على ظهورها وأكتافها . ولا عجب . فقد كنت منذ الصغر – ولا أزال – أميل بكلّ فكري وقلبي إلى المظلومين والمرهقين لا فرق عندي بين قريب وغريب ، وأبيض وأسود ؛ وأمقت الغطرسة ، والبطر ، والرياء ، والذلّ ، والخنوع ، واستبداد الإنسان بالإنسان . مثلما أمقت البطش بالساعد أو بالسلاح ، وأحسب أن ليس في الأرض ما هو أقوى من الفكر إذا ما رافقه شيء من اللّطف والمحبّة والإيمان بالحق وسلطانه الذي لا يُقهر . وذلك ما حدا بي ، في شتاء العام ١٩١٠ ، أن أنظم بالروسيّة قصيدة دعوتها « النهر المتجمّد » . وقد شئت أن أرمز بالنهر إلى روسيا . فرحت ، من بعد أن وصفت النهر المكبّل بالجليد ، أخاطبه فأقول إن الربيع لا شكّ آتٍ وهو سيفكّه من أصفاده . وأختم القصيدة بمقطع أوجّهه إلى « أمّنا روسيا » فأسألها متى يذوب جليدها ويأتي ربيعها فيصر الفلاّح والعامل فيها أيّاماً يتذوّق فيها شيئاً من العدل والكرامة .

إلاّ أنّها لا تجيبني . ولذلك أختم المقطع بقولي : « نامي يا عزيزتي ! » وهذه القصيدة قد نقلتها بعد سنوات إلى العربيّة . إلاّ أنّني استبدلت بالمقطع الأخير مقطعاً أخاطب فيه قلبي وليس روسيا .

لحظت منذ البداية أن رفاقي كانوا يؤثرون التحدث بلغتهم الأوكرايينيّة برغم أن الروسيّة كانت لغة التدريس ولغة البلاد الرسميّة ، وبرغم أن الروسيّة والأوكرايينيّة نبتتان من أرومة واحدة . فالحروف واحدة ، والقواعد تكاد تكون واحدة ، والمفردات في أغلبيتها الساحقة واحدة مع اختلاف طفيف في اللّفظ والكتابة . ومن ثمّ فالشعبان في الشمال والجنوب من جنس واحد ، ودين واحد ، وتاريخ مشترك ، وقد ربطا مصيرهما معاً بمعاهدة مضى عليها أكثر من قرنين . وعرفت كذلك أن بين رفاقي من ينتسبون إلى جمعيات سرّيّة تدعو إلى استقلال « روسيا الصغرى » عن روسيا الكبرى . ولماذا ؟ إنّها النعرة القوميّة ، أو الإقليميّة ، التي كلّما همدت ريحها وانخفضت حرارتها ، فأوشكت على التلاشي ، قام لها من يثير من حولها الزوابع ، وينفخ النّار في أوداجها ، وينخسها بشتّى المناخس . وإذا بها تضجّ من جديد وتثور ، وتغلي وتفور . وإن أنت سألتها : فيمَ الضجيج والثورة ، والغليان والفوران ؟ أجابتك : إنّه « الشرف » القومي . أمّا

أن ذلك الشرف لا يرأب صدعاً في قلب ، ولا يمسح دمعة من عين ، ولا يكشح عتمة عن فكر ، ولا يزرع طمأنينة في نفس فالنعرة القوميّة لا تلقي إلى كلّ ذلك أقلّ بال .

إن تكن تلك هي حال أوكرايينا مع روسيا – وبينهما من وشائج القربى مثل ما ذكرت – فماذا عسى تكون حال بولونيا وبينها وبين روسيا عداوة في الدّين ، وفي التاريخ ، طغت على كلّ قرابة في العرق واللغة ؟ أو حال المقاطعات البلطيقيّة ، وفنلندا ، والبلدان الآسيويّة إلى الجنوب وليس بينها وبين روسيا أيّة رابطة غير رابطة الجوار والاستعمار ؟ – كنت أطرح هذه الأسئلة على نفسي ، وكان مجرّد قيامها في ذهني دليلاً لي على أن الهرم الروسي لم يكن من التماسك والقوّة حيث توهمته قبل أن اقتربت منه وبُعيد أن دخلته .

لقد كانت الحياة في المدرسة صورة مصغّرة للحياة في روسيا . إذ كان بين رفاقي السكير ، والمقامر ، والفاجر ، والمنافق ، والسارق ، والكسول ، والمستهتر ، والجاحد إلى جانب المتعبّد ، والمتزمّت ، والنشيط ، والأمين ، والصادق ، والمتعفّف ، والذي لا يلمس ورق اللّعب ولا تعرف « الفودكا » إلى جوفه سبيلاً . مثلما كان بين أساتذتنا العبوس ، والقاسي ، والمتحجّر إلى جانب البشوش واللطيف والمتطلّع إلى كلّ جديد . إلاّ أنّهم ، في الغالب ، كانوا ذوي قلوب

مفتوحة ، مضيافة ، ونفوس رضيّة ، سمحاء ؛ يقيمون للصداقة وزناً ، ويتحسّسون مسؤوليات الوجود ، ويتذوّقون الفنون على أنواعها ، ويميلون إلى الجدّ أكثر منهم إلى الهزل ، وإلى التمرّد أكثر منهم إلى الخنوع .

وكان ، بعد ثورة ١٩٠٥ ، أن الطلاّب في المدارس الروحيّة ، أُسوة بغيرهم من الطلاّب ، قد نالوا حرّيّات لم تكن لهم من قبل . منها حرّيّة الخروج من المدرسة بعد الدروس أينما شاؤوا . والعودة إليها في أيّ ساعة شاؤوا . وهذه الحرّيّات أخذت تُستردّ منهم شيئاً فشيئاً . فلم تنقضِ على الثورة سنوات أربع حتّى عادت الإدارة إلى سالف عهدها بالتضييق على الطلاّب . فلا تسمح بالذهاب إلى المسارح لأكثر من ثمانية في كلّ مساء . وتهدّد بالقصاص الصارم كلّ مَن لا يجده الناظر في سريره عند الساعة العاشرة . وساء الأكل الذي كان يقدّم لنا . وانخفضت جودة الأقمشة التي كانت تُخاط منها ثيابنا . واشتدّت الرقابة علينا داخل المدرسة وخارجها . وكثر الجواسيس بيننا . وعندما خطر لي ولنفر من رفاقي في الصف الرابع — وهو الصفّ الذي كانت له القيادة في شؤون الطلاّب — أن نصدر نشرة أدبية أسبوعيّة نطبعها على الجيلاتين ، ما كدنا نخرج منها عددين أو ثلاثة حتّى صدرت الأوامر بمنعها ، ولم يكن فيها ما يمس أيّة سلطة

من قريب أو من بعيد .

في صباح يوم من شتاء ١٩٠٩ – ١٩١٠ – ولست أذكر التاريخ – انحدرتُ كالمعتاد من الدور الثالث حيث كانت غرف المنامة إلى الدور الثاني حيث كانت غرف الدرس ، فوجدت باب القاعة الكبرى المؤدية إلى قاعات الدروس موصداً من الداخل . ولمّا طرقته مثنى وثُلاثَ سمعت صوتاً يسألني : مَن أنت ؟ فأعطيته اسمي . وعندها انفتح الباب ليعود فينغلق في الحال . وإذا القاعة الكبرى تعج بالطلاب وهم في حركة محمومة كأنّهم النحل في القفير . وإذ سألت عن الخبر قيل لي : « زابا ستوڤكا ! » – إضراب ! ولم يكن لي أي علم سابق بذلك . فدهشت . إنّها المرّة الأولى أشهد فيها عصيان مرؤوسين على رؤسائهم ، وتمرّد تلاميذ على أساتذتهم ، وأسمع جماعة من النّاس تطالب بحرّيّات سليبة وحقوق مهضومة . وقد أثارني المشهد . فرحت أرقب حركات رفاقي ووجوههم ، وأنصت إلى ما يتساقط من أفواههم . وما هي إلاّ دقائق حتّى قامت في طرف من القاعة منصّة للخطابة وأخذ الخطباء يتبارون في الصعود إليها والنزول عنها ، وكلّهم يطالب بالحقوق السليبة ويسوق الحجج ويختار العبارات التي من شأنها أن تثير الحماسة والنقمة إلى جانب التقدير والإعجاب .

وحلّت فترة انقطع فيها سيل الخطباء ، وبدت المنصّة باردة ، مهجورة . وإذا بثلاثة من رفاقي يدنون مني ويطلبون إليّ أن أقول كلمة . فاعتذرت لأني غريب وضيف . وعلى الغريب أن يحسن السلوك في غربته . وليس للضيف أن يشترط على مضيفه كيف تكون ضيافته . فارتدّوا عني خائبين . وظننتني نجوت من المأزق، وهنأت نفسي بما بدر مني من لباقة . ولكن المنصّة بقيت باردة ومهجورة . وخشي رفاقي أن تتسرّب البرودة إلى النفوس . فما دريت إلاّ وأنا محمول إلى المنصّة حملاً . لقد أبَى الرفاق قبول عذري . وأخفقت دبلوماسيّتي .

وها أنا على المنصّة تحدّق إليّ ألف عين ، وتصفّق لي ألف كفّ وأكثر . فهل أقف وقفة أبي الهول ؟ هل أنزل عن المنصّة وأهرب من هؤلاء الرفاق الطيّبين ، فكأنّني لست منهم بخلٍّ أو بخمر ؟ أليس يضيمني الذي يضيمهم ، ويفرحني الذي يفرحهم ؟ وهل أنا في الواقع غريب عنهم وقد أصبحت واحداً منهم ؟ إنّما الغربة غربة الأفكار والقلوب — غربة النفوس — لا غربة الديار . وإذن فلن أنزل عن المنصّة . لن أهرب من رفاقي . لن أُخيّب هذه العيون المصوَّبة إليّ . وهذه الأكفّ التي تدعوني إلى الكلام .

لست أذكر ممّا قلته في وقفتي تلك غير هذه الكلمات : « نطلب خبزاً فيعطوننا حجراً . ونطلب سمكة فيعطوننا

حيّة . » وقد أخذتها من قول المسيح : « أيّ إنسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ أو إذا سأله سمكة يعطيه حيّة ؟ »

لقد كلّفتني تلك الكلمات غالياً جدّاً . إذ ان الأوامر صدرت بعد يومين بإقفال المدرسة . فاستدعاني الرئيس إليه ، وكان قبل ذلك يعطف عليّ أكبر العطف ، ليقول لي بمنتهى البرودة والقسوة والتهكّم : « ما دام خبزنا في فمك حجارة ، وسمكنا حيّات ، فما عليك إلاّ أن تعود إلى الجمعيّة التي أرسلتك إلينا . »

انصرف التلاميذ إلى بيوتهم في شتّى أنحاء ولاية پولتافا ليعودوا بعد أسبوعين أو ثلاثة . ما عدا تلاميذ الصفّ الرابع – صفّي – الذي كانت له الزعامة في إثارة الإضراب وإدارته . فهؤلاء لم يُسمح لهم بالعودة إلاّ بعد عام . والمحرّضون بينهم – وقد عُددتُ واحداً منهم – حُرموا من العودة لاستئناف دروسهم في المدرسة حتّى بعد عام . ولكن أُعطي لهم الحق في تقديم امتحاناتهم النهائيّة في تموز من العام ١٩١١ على أن يستعدوا لها خارج المدرسة . بذلك قضت حكمة « المجمع المقدّس » .

وكان ربيع سنة ١٩١١ . وكنت قد أكملت استعدادي للامتحانات النهائيّة . فشقّ عليّ أن أنتظر موعدها في تموز .

لذلك رفعت عريضة إلى إدارة المدرسة في أواسط نيسان طالباً السماح لي بتقديم إمتحاناتي في الحال . وكان لا يزال لي رصيد طيّب من الاعتبار والمحبّة في أذهان الكثير من أساتذتي . فلم يردّوا طلبي . وهكذا اجتزت امتحاناتي بنجاح ، وتسلّمت شهادتي ، وودّعت رفاقي وأساتذتي ، وقفلت راجعاً إلى بلادي في أوائل أيّار من ذلك العام ، وليس في قلبي أقلّ حقد على روسيا بسبب ما لقيته من صعوبات في آخر سنة أقمتها فيها . بل على العكس . لقد كنت أشعر أنّني أودّع بلاداً تغلغلت ثقافتها في دمي ، وتمكّنتْ لغتها من فكري ولساني إلى حدّ أن كادت تطغى على لغة آبائي وأجدادي . وارتسمت مناظرها وأغانيها ومشكلاتها في ذهني فكأنّها بعض مني .

ولقد حسبت يوم فكّت السفينة التي أقلّتني من أوديسا روابطها ، ورفعت مرساتها ، أنّني فككت رباطاتي ببلاد الروس ، وأن النظرة التي ألقيتها حينئذٍ على أرضها المليئة بالخيرات والأسرار كانت آخر نظرة .

روسيا في اميركا

لم يدر قطّ في خلدي، يوم ودّعت روسيا في ربيع ١٩١١ . أنّني في خريف ١٩١٢ سأصبح طالباً في جامعة ولاية واشنطن بمدينة « سياتل » على شاطىء المحيط الهادىء . ولقد أذهلني أن تقبلني الجامعة بدون امتحان ، ثمّ أن تعتبر شهادتي الروسيّة موازية لسنتين من الدراسة فيها ، الأمر الذي مكّنني من إنجاز دراستي في كليّة الآداب وكليّة الحقوق في سنوات أربع . وهي دراسة كانت تستغرق سبع سنوات . فتبيّن لي من ذلك أن المستوى الجامعي في الولايات المتحدة كان أدنى منه في روسيا . إذ ان شهادة كالّتي كنت أحملها من السمنار في بولتافا ما كانت تخولني دخول جامعة في روسيا إلاّ بامتحان جعلوه من الصعوبة بمكان .

كان في الجامعة عدد غير يسير من الطلاّب الأجانب ، بينهم الياباني ، والصيني ، والهندي ، والأسوجي ، والنروجي ، والهولندي ، والألماني ، والاسكتلندي ، وغيرهم . ولم يكن

بينهم ولا واحد روسي . وكم بتّ أتمنّى ، من بعد أن غادرت روسيا ، لو ألتقي روسيّاً لأتحدّث إليه بلغته ، وأتسقّط منه أخبار بلاده .

ولا أدري لماذا كنت أستأنس بمعاشرة الطلاّب الأجانب أكثر مني بمعاشرة الأميركيين منهم . لعل تفسير ذلك في قول الشاعر : « وكلّ غريب للغريب نسيب » . أو لعلّني كنت أجد في الطلاّب الأجانب نزعة إلى التفكير الجدي ما كنت أجد مثلها عند رفاقي الأميركيين . فهؤلاء قلّما كان يشغلهم الاهتمام بمشاكل الإنسان الأساسيّة ما بين خير وشرّ ، وحياة وموت ، وعقاب وثواب ، ومصدر ومآب ، وتفاوت في المراتب والحظوظ . وكان يشغلهم أكثر من ذلك بكثير أن تربح جامعتهم مباراة ضد جامعة أخرى في « الفوتبول » أو « البيسبول » ، وأن يحصل الواحد منهم على شرف الانضمام إلى « أخويّة » من الأخويّات الكثيرة المعروفة عندهم بـ « أخويات الأحرف اليونانيّة » ، وأن يجتاز امتحاناته الفصليّة والسنويّة ، وأن لا تفوته حفلة راقصة ، وأن يحظى بعد انتهاء دراسته الجامعيّة ، بمركز مرموق ، أو عمل يكفل له راتباً محترماً .

لن أنسى صدمة كانت لي في أوّل درس حضرته في الاقتصاد السياسي إذ افتتح الأستاذ محاضرته بسؤال وجّهه

إلى الطلاّب : « ما قصدكم من الدرس في الجامعة ؟ » ثمّ لم يلبث أن أجاب على سؤاله بنفسه : « كسب المعاش . » فقد أثار السؤال والجواب في نفسي عاصفة من الاحتجاج الصامت : « ألهذه الغاية . وليس لأبعد منها . وُجدت المدارس على الإجمال . والجامعات على الأخص ؟ وإذن فهي الحماقة التي ما بعدها حماقة أن يكون في الأرض أناس – وأنا واحد منهم – يسألون بغير انقطاع : من هو الإنسان ؟ وما هو مقامه في هذا الكون اللامتناهي ؟ ولماذا يولد وينمو ويعمل ويتناسل ويتهالك على الملذات والمسرّات . فلا يصطادها إلاّ يصطاد معها الأوجاع والحسرات . ولا تكاد تكتمل قواه حتى يدركها وهن الشيخوخة ثمّ الموت ؟ ومن أين هذا التفاوت الهائل في حظوظ النّاس من المواهب الجسديّة والعقليّة ومن خيرات الأرض والسماء ؟ إن يكن من خلف ذلك قصد أو حكمة فما هو القصد . وأين هي الحكمة ؟ ولماذا الظلم والفقر والجهل والحروب والأوبئة . وهل من سبيل إلى التغلّب عليها ؟ »

صحيح أن « الاقتصاد السياسي » لم يوضع لمعالجة مثل تلك المشكلات . ولكن أستاذنا عمّم حين قال إنّنا ما جئنا إلى الجامعة إلاّ ليكون درسنا فيها وسيلة لكسب المعاش . فآلمني تعميمه . إذ انّني لم أدخل الجامعة لأتعلّم كيف أحصل

على قوتي وكسائي ومأواي لا أكثر . فهنالك الملايين من الذين يحصلون على هذه الأشياء ولم يدخلوا جامعة قطّ ، بل لم يتعلّموا القراءة والكتابة . ولكنّني كنت أتوقّع من الجامعة أن تهديني إلى بعض المفاتيح التي أستطيع بها ولوج ما أُغلق في وجهي من أبواب المعرفة . فأحيا فاهماً لماذا وكيف أحيا . وأعمل لا لكسب معاشي وحسب . بل ليكون عمَلي لَبِنة مباركة في بناء الإنسان الذي هو أنا . وبالتالي في بناء الإنسانيّة التي هي « أنا » مكرّرة آلاف آلاف المرّات .

لعلّ أستاذنا ، بكلماته البسيطة والصريحة ، عبّر أصدق التعبير عن اتجاه التعليم الحديث في كلّ مكان . وعلى الأخص في أمّة ناشئة كالأمّة الأميركيّة التي قُسط لها أن تعمّر قارة شاسعة تكاد تكون بكراً . فكان عليها أن تفكّر بالوسائل التي تساعدها على تذليل المسافات والغابات والأنهار والسهول والجبال والبحار واستثمار ما فيها من خيرات قبل أن تفكر في ما كان من قبل وما سيكون من بعد ، ولماذا كان ما كان وسيكون ما سيكون . فسيل الهجرة من الولايات الشرقيّة ومن وراء الأطلسي إلى الولايات الغربيّة البكر كان لا يزال في ذروته . والمدن والقرى والمزارع والمعامل كانت تنبت وتنمو وتتّسع كأنّها في دنيا الأساطير . وكذلك الثروات . فالذهب في كاليفورنيا ، ومن بعدها في آلاسكا ، منثور على

ضفاف الأنهار وفي جوف الأرض بالأطنان . وهو مباح لكلّ مغامر مقدام . ثمّ ما عتّم أن جاء الذهب « الأسود » في أعقاب الذهب الأصفر . فكانت طفرة جديدة في الثروات الأسطوريّة ، رافقتها طفرات مماثلة في التجارة والصناعة والزراعة وسائر مرافق الحياة . وبات كلّ أميركي يحلم بالملايين وما تبتاعه الملايين من ترف وعزّ ووجاهة ونفوذ ومجد . وإذن فلا تثريب على أُستاذنا إذا هو قال إن الغاية من الشهادات الجامعيّة هي أن تكون المفاتيح لأبواب الكسب لا أكثر .

عشت في أميركا عشرين سنة ، بلوت في خلالها كلّ أصناف الأميركيّين من رجال أعمال ، ورجال دين ، ورجال حرب ، ورجال أدب وفنّ ، ورجال سياسة وعلم ، ومن عمّال وفلاّحين ، ومن بيض وسود ، وشماليّين وجنوبيّين . فوجدتهم ، على الإجمال ، قوماً كريمهم أكثر من شحيحهم ، وشهمهم أكثر من لئيمهم ، وصادقهم أكثر من كذوبهم ، ومتديّنهم أكثر من ملحدهم . إنّهم إلى الخير أميل منهم إلى الشرّ ، وإلى المسالمة منهم إلى المخاصمة ، وإلى العمل منهم إلى الكسل . بل إنّهم، من حيث النشاط في تنظيم حياتهم العمليّة ، لا يتقدّمهم أيُّ شعب من شعوب الأرض . فنشاطهم هو الذي فتّق أرضهم عن الثروة الهائلة التي هي

ثروتهم . وهذه الثروة ، بدورها ، فتقت الذكاء الذي في طبيعتهم عن هذا الفيض من الاختراعات الكبيرة والصغيرة التي يستمتع اليوم بها النّاس في كلّ مكان ، والتي تبدو كما لو كانت تسهّل المعيشة في البيت ، وفي الحقل والمعمل والمتجر والمدرسة وغيرها ، في حين أنّها تزيدها تعقيداً إذ هي تزيد في تكاليفها وفي الأيّام والأعوام التي نهدرها من أعمارنا لأجل الحصول عليها . أمّا الدافع الأهم على خلقها فحبّ الكسب والمتعة ، لا حبّ الترفيه عن الإنسانيّة المعذّبة .

إلاّ أنّني وجدت الأميركيّين يميلون بطبيعتهم إلى الانصباب في قوالب ، لا في ملابسهم ومساكنهم وملاهيهم ، وفي مأكلهم ومشربهم فقط ، بل في مشاعرهم كذلك ومعتقداتهم وعاداتهم . ووجدتهم يطمئنون منتهى الاطمئنان إلى قوالبهم ، حتى ليزعجهم أقلّ تغيير يطرأ عليها . فهم ، من حيث الدين ، شيَع كثيرة . وكلّ شيعة تؤمن أوثق الإيمان بأنّها الباب الوحيد المؤدي إلى السماء . وهم قوم متعبّدون — إذا صحّ أن ندعو الإقبال على الكنائس في الآحاد والأعياد تعبّداً . وقد بلغ بهم تعبّدهم أن نقشوا على نقودهم هذه الآية : In God We Trust . ومعناها : « على الله نتوكّل » أو « بالله نؤمن » أو « بالله نثق » . ولست أشك في أن معظم الأميركيّين يعزون ما هم فيه اليوم من بحبوحة وقدرة وزعامة

عالميّة إلى إيمانهم بالله . ناسين ، أو متناسين ، أن بابل نبوخذ نصّر ، وآشور شلمنصّر ، ومقدونية الإسكندر ، ورومة يوليوس قيصر ، وممالك أخرى قد بلغت في زمانها مثل ما بلغته أميركا من السؤدد والعظمة ، وما عرفت قطّ مسيحاً ولا إلهاً واحداً منه وله كلّ ما في السماوات وعلى الأرض .

إن الأميركيّين ، على ما فيهم من عناصر إنسانيّة طيّبة ، قوم عمليّون قلّما تشغلهم النظريات المجرّدة عن الكسب والمتعة الماديّة . وتفكيرهم السياسي يجري في قوالب مثلما يجري تفكيرهم الديني . فهم ، من حيث السياسة ، إمّا جمهوريون وإمّا ديموقراطيون . والفرق بين أولئك وهؤلاء في الاسم أكثر ممّا هو في الجوهر والمبدإ . ولا عبرة بالأحزاب الصغيرة الّتي لم يحصل واحد منها حتّى اليوم على مقعد في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ . والتشيّع الديني ، كالتشيّع السياسي ، قلّما يأتيهم نتيجة لاقتناع شخصي . بل إنّه ، في الغالب ، ينحدر إليهم بالإرث أباً عن جدّ . ولأن بلادهم من السعة والبحبوحة حيث هي ، فقد باتوا يعتقدون أنّهم في غنًى عن بقيّة العالم ، أمّا بقيّة العالم فلا غنى لها عنهم . ولذلك لا تجد بينهم إلاّ القليل ممّن يهتمّون بما يجري خارج بلادهم . واهتمامهم يكاد يتّخذ لوناً واحداً وطابعاً واحداً ، وهو أن يجعلوا بقيّة العالم نسخة طبق الأصل عنهم . لأنّهم واثقون

من أن طريقتهم في الحكم والعيش والعمل والكسب هي الطريقة المثلى بغير شك وبغير منازع .

إنّنا نعيش اليوم في عالم يسوده القلق . ومن شأن القلق ، إذا استفحل واستبدّ ، أن يتفجّر ثورات هاصرات . ويبدو لي أن جميع بلدان العالم معرّضة للثورة . إلاّ الولايات المتحدة الأميركيّة . فهي ستكون آخر بلد في الأرض تقوم فيه للثورة قائمة .

ولكن أين أنا من عنوان هذا الفصل : روسيا في أميركا ؟ فلنعد إليه .

كنت في بدء السنة الثانية من دراستي في كليّة الحقوق عندما وقع بصري ذات صباح في صدر جريدة محليّة على خبر مفاده أن روسيا افتتحت لها قنصليّة في مدينة « سياتل » ، وأن اسم القنصل « بوغويا فلينسكي » — وهو اسم أحد أساتذتي الروس في الناصرة . فاهتممت للخبر أيّما اهتمام وقلت في نفسي : أيكون هذا القنصل أستاذي القديم ؟ إذا صحّ ذلك فإنّها لا شك مصادفة من أغرب المصادفات وأحبّها عندي . فقد كنت في شوق عظيم إلى رجل روسيّ مثقّف أجلس إليه وأتحدّث معه في شتّى شؤون البلاد التي تركت في نفسي أعمق الأثر . وكانت الحرب العالميّة الأولى في سنتها الثانية . وكنت أتتبّع بلهفة أخبار الجبهة الروسيّة فيؤلمني أن

لا أجد فيها ما يبعث على الارتياح .

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت إلى الفندق حيث كان القنصل ، فما إن وقعت عيني عليه حتى شعرت بخيبة مريرة وبخجل من الرجل . إنّه لم يكن معلّمي ولكنّه . من بعد أن سمع قصّتي واعتذاري . كان لطيفاً معي منتهى اللطف ، إذ ألحّ عليّ بالبقاء عنده حصّة من الزمن . وأجلسني بجانبه . ورحنا نتحدّث .

وقد أدهشه أن يسمع شابّاً غير روسي يكلّمه بلغة روسيّة فصحى . وأين ؟ في أقصى المغرب الأميركي .

طالت جلستنا نحو ساعتين . وما كنت أحسبها تطول أكثر من دقيقتين . وانتهت إلى مفاجأة ما خطرت لي حتى في الحلم . فقد توسّل إليّ القنصل – أجل . توسّل – أن أشغل لديه وظيفة سكرتير معاون لأهتمّ بمراسلاته الإنكليزيّة مع السلطات الأميركيّة في الولايات الداخلة في نطاق قنصليته . وقد أكّد لي أن عملي لن يكلّفني من الوقت أكثر من ساعتين بعد الظهر في كلّ يوم من أيّام الأسبوع . وذلك لقاء أجر حسبته – وأنا الطالب في جامعة – نعمة وأيّة نعمة . إذ كان ضعفي المبلغ الذي كنت أنفقه في الشهر . وهكذا تمّ الاتفاق .

كان القنصل قد جاء « سياتل » وليس برفقته إلاّ السكرتير الأوّل . أمّا عائلته فبقيت في « بطرسبرج » . ولكنّه من بعد

أن استقرّ به المقام ، واكترى بيتاً لائقاً بالقنصليّة ، واشترى سيارة ، استقدم عائلته إليه ، فما عتّمتُ أن أصبحتُ وكأنّني فرد من أفراد تلك العائلة . وهكذا وجدتني مرّة ثانية ، وعلى غير انتظار مني ، ولبضع ساعات من كلّ يوم ، في جوّ روسي صرف ، إلى جانب الجوّ الأميركي الذي كنت أعيش فيه بقيّة اليوم .

أنهيت دراستي في الجامعة صيف ١٩١٦ ؛ وكانت قد أدركتني من نيويورك نسمات حركة أدبيّة عربيّة مباركة فأحببت أن أكون في صميمها . وقرّ رأيي على السفر إلى مدينة ناطحات السحاب التي كانت مدخلي إلى العالم الجديد فلم تترك في نفسي من أثر غير انقباض في القلب ، وغير الشعور بأن برج بابل قد انتقل من ضفاف دجلة والفرات إلى ضفاف الهدسن . وعندما أطلعت القنصل على عزمي اضطرب واغتمّ ، وحاول أن يقنعني بالعدول عنه . فلم أقتنع . وإذا بي أشهد مشهداً غريباً — أشهد رجلاً في نحو الخمسين تترقرق دموعه على وجنتيه وتنحدر إلى لحيته الصغيرة ومنها إلى الأرض . وإذا بالرجل يخرج من المكتب ليعود بعد حين ويناولني ثلاث رسائل توصية لرؤساء بعثات روسيّة كانت تعمل آنئذٍ في نيويورك لابتياع شتى الأسلحة الأميركيّة وإرسالها على جناح السرعة إلى روسيا . وقد قال لي وهو يناولني الرسائل :

« خذ هذه الرسائل معك . لعلّها تنفعك . نيويورك مدينة كبيرة . وأخشى عليك أن تشقى هناك إذا لم تجد لك في الحال عملاً ترتزق منه . خذها معك . »

وكان الذي حذّرني القنصل من الوقوع فيه . إذ لم يطل بي المقام في نيويورك حتّى وجدتني مكرهاً على التفتيش عن عمل يدرّ عليّ ما يدفع عنّي الحاجة . والحاجة في « بابل الجديدة » لا ترحم . فعدت إلى رسائل التوصية الّتي زوّدني بها القنصل ، وكانت واحدة منها إلى رئيس « بعثة المدفعيّة » وهو برتبة جنرال . فبشّ لي الجنرال وأمر بأن أُعطى عملاً في الدائرة الواسعة الّتي كانت تحت إمرته . وهكذا انتقلت من جوّ روسي في القنصليّة إلى جوّ روسيّ آخر . إذ ان جميع الموظفين في الدائرة كانوا من الروس . وكنت أُحسّني بينهم كواحد منهم . وكانوا يعتبرونني كذلك .

دامت علاقتي مع الروس في أميركا حتّى ربيع ١٩١٨ . وكانت روسيا قبيل ذلك التاريخ قد شهدت ثورتين : ثورة « كيرنسكي » ورفاقه الّتي أطاحت بعرش نقولا الثاني . وثورة لينين ورفاقه الّتي أطاحت بكيرنسكي وبنقولا الثاني وعائلته ، وانهارت معها مقاومة الجيوش الروسيّة في ميادين القتال ضد الألمان ، واندلعت بعدها نيران الحرب الأهليّة الهائلة ، فباتت جميع البعثات الروسيّة في الخارج في حالة من التضعضع

والفوضى ، وبات أفرادها في أشدّ البؤس والاضطراب .

لقد آلمني أن تُمنى الجيوش الروسيّة بهزائم نكراء ما كانت لتعوّض عنها انتصاراتها في جبال « الكربات » وفي أرضروم . وخشيت ، عندما قامت ثورة كيرنسكي ، أن تكون الضربة القاضية على سمعة روسيا الحربيّة ، فتنسحب جيوشها من الميدان ، وتُفرض عليها شروط صلح قاسية . لكنّه ما عتّم أن راحت الأسلاك تنقل إلينا الأخبار عن دينامية قائد الثورة ، وسحر بيانه الذي استطاع به أن ينفخ في البلاد وفي الجيش حماسة جديدة ، وأن يعلن أنّه سيحارب حتّى النهاية . فتجدّدت آمالي بأن روسيا التي أحببتها لن تخرج من الحرب بالخزي والعار والدمار .

هلّلت لثورة كيرنسكي لأنّني اعتبرتها انتفاضة رائعة ينتفضها الشعب الروسي ضدّ كلّ ما في جهاز حياته من جور وعسف واستبداد وفساد . وراعني منها ، كما قلت ، تصميمها على أن لا تخرج من الحرب بالاندحار والعار . ولكنّ موجتها ما كادت تمتد حتّى طغت عليها موجة أقوى وأعنف منها بكثير . فابتلعتها وكأنّها لم تكن . تلك هي ثورة البلاشفة الذين ما كنت أعرف عنهم وعن زعمائهم إلاّ القليل . إنّها ثورة البروليتاريا التي انقضى عليها أربعون عاماً وحديثها لا يزال على كلّ شفة ولسان ، وأصداؤها لا تبرح تتجاوب في كلّ

مكان . إنّها الحدث الوحيد من نوعه في تاريخ العالم الذي هزّ العالم . وما انفكّ يهزّه من القطب إلى القطب ومن مشرق الشمس إلى مغربها . ذلك لأنّه يتناول شجرة الحياة البشريّة بأوراقها وأفنانها وجذوعها وساقها وجذورها . ويتناول حتّى التربة التي تنمو فيها والأجواء التي تصعّد في مدارجها . ولأن ثورة البلاشفة كانت من ذلك النمط . ثمّ لأنّها سلكت إلى غاياتها طريق النّار والدم . فقد استقبلها الأميركي العادي بالاستنكار والاشمئزاز . حتّى إن كلمة « بولشفيك » باتت مرادفة في قاموسه لكلمة سفّاك ، أو لصّ ، أو قاطع طريق . أو هكذا صوّرته له صحافته .

لقد عرف العالم ثورات كثيرة من شتّى الألوان والاتجاهات . ولكنّها ما كانت من العمق والعنف والمدى بحيث تقلب أوضاعه رأساً على عقب . فتصبح الدولة شركة يُسهم في بنيانها كلٌّ على قدر طاقته ويأخذ من نتاجها كلٌّ على قدر حاجته . فكأنّها العائلة سواء بسواء . يتعاون جميع أفرادها في تحصيل رزقها من غير أن يكلفوا القاصرين والمقعدين منهم أيّ عناء . فلهؤلاء عين الحق الذي للعاملين في أن يتناولوا من معجن العائلة حاجتهم من الخبز ، وفي أن يستمتعوا بكل ما في البيت من أسباب الراحة .

إنّها ثورة ولا كالثورات — تلك التي قام بها البلاشفة

في ديار القياصرة . وإنّها من الطموح بحيث لا يستطيع أحد أن يتنبأ بالحدود التي تقف عندها . فهي لا تقنع بهذا البلد أو بذلك مسرحاً لنشاطها . وإذا قنعت فإلى حين . ولكنّها واثقة من صحة مبادئها ، وسلامة أسسها ، وأصالة مناهجها إلى حدّ أن تؤمّل بتحويل العالم كلّه إلى عائلة بشريّة واحدة ، تنتفي من حياتها الفواصل العرقيّة والجغرافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة ، وتصبح الأرض ملكاً حلالاً لها تستغلّها بذكائها المشترك ودهائها الموحّد لخير كلّ فرد من أفرادها . وذلك الحلم الجميل يبدو في نظر الشيوعيّة قابلاً للتحقيق . فكأن اقتلاع جذور القوميّة ، والملكيّة الفرديّة ، والدين ، والأنانية — وكلّها متأصل في البشريّة وعنيد — من السهولة كاقتلاع ضرس من فم وعشبة من تربة .

لقد قضت الثورة الشيوعيّة على علاقتي بروسيا — أو هكذا ظننت — عندما قضت على البعثات الروسية في أميركا . فلم يبقَ لي من مبرّر للتخلّص من الخدمة الإجباريّة في الجيش الأميركي إلاّ كوني من تبعية تركيّة . وهو مبرّر ربأتُ بنفسي أن تلجأ إليه . فلبّيت دعوة إله الحرب في ربيع ١٩١٨ وأصبحت جنديّاً تحت راية « العم سام » . ودامت جنديّتي سنة كاملة صرفتها في فرنسا .

وعندما عدت إلى أميركا صيف ١٩١٩ وسُرّحتُ من

الجنديّة تذكّرت القنصل في سياتل . وكتبت إليه أستفسر عن حاله وحال عائلته . فجاءني جوابه يعصر قلبي عصراً . لقد تُوفّيت زوجته وابنته . وبقي مع ابنيه القاصرين وليس لهم أي مورد يتّكلون عليه . فلا هم يستطيعون البقاء حيث هم . ولا هم يجسرون أن يعودوا إلى بلادهم من بعد أن سُدّت أبوابها في وجوه أمثالهم . لقد باتوا من « البيض » المشرّدين .

روسيا في لبنان

في التاسع عشر من نيسان عام ١٩٣٢ أدرت ظهري إلى تمثال الحريّة القائم في مدخل نيويورك والدائر ظهره إلى المدينة والبلاد التي من خلفها حيث بذرت عشرين من سني فتوّتي ورجولتي . وعندما أحصيت « ثروتي » من الدولارات وجدتها لا تفيض عن تكاليف العودة إلى بلادي إلاّ بمبلغ لا يكاد يغري أيّ سارق أو نشّال .

لقد خرجت من بلاد الثروات الأسطوريّة خروج الشعرة من العجين . وضاعت عليّ حكمة أستاذي في الاقتصاد السياسي إذ انّني ما استخدمت علمه ولا علوم سواه من أساتذتي الجامعيّين في كسب معاشي . واستخدمتها في كسب ما هو أجلّ وأبقى من ذلك في نظري بكثير . فالخبرة التي زوّدني بها ذانك العقدان من السنين في شؤون النّاس والحياة كانت أثمن من أن تثمّن بكلّ ما في صناديق « وول ستريت » من مال . وتلك الخبرة علّمتني أن كلّ ثروة إلاّ التي نختزنها في الفكر

والقلب هي عظام في مقبرة ، أو زبد على موج ، أو هباء في الهواء ؛ بل هي ، في الغالب ، حجارة رحى تُشدّ بأجنحة الفكر والقلب والخيال .

كنت ، وأنا بعدُ في نيويورك ، أتتبّع بشوق أخبار الثورة الروسيّة ، وبقيت أتتبعها من بعد عودتي إلى لبنان . ولقد راعني التنظيم المدهش في إدارتها وتوجيهها - ذلك التنظيم الذي مكّن حفنة رجال لا خبرة لهم في فنون الحرب من أن تقهر جيوشاً جرّارة ، من داخل البلاد ومن خارجها ، يقودها ضبّاط اتّخذوا الحرب مهنتهم منذ شبابهم . إنّها ثورة تبدو هزيلة إزاءها جميع الثورات الّتي تقدّمتها في التاريخ . فقد تألبت عليها قوى عالميّة هائلة بقصد خنقها في المهد . إلاّ أنّها ، وهي في المهد ، تكشّفت عن عملاق وأيّ عملاق . والنّصر الذي انتزعته من أخصامها لم يأتها بقوّة السلاح وحده . بل بقوّةٍ أين منها قوّة السيف والبندقيّة . هي قوّة الإيمان بعدالة قضيّتها ، وسداد رأيها ، وبالغ أهميتها ليس لروسيا وحدها ، بل للعالم بأسره . إنّها المرّة الأولى تتفجّر فيها المظالم المكبوتة على مدى أجيال وأجيال في صدور العاملين في الأرض وفي المعامل والمناجم ، وينطلق صوتهم مطالباً بقسطهم العادل من ثمرات أعمالهم ، ومن الكرامة الإنسانيّة .

ومَنذا يستطيع أن ينكر أن الفلاّحين والعمّال كانوا ،

وما برحوا ، الأغلبيّة الساحقة في الأرض . وأنّهم منذ أقدم العصور وحتى اليوم يحملون أثقال البشريّة على ظهورهم ومناكبهم ويعامَلون كما لو كانوا من البشريّة خشارتها ؟ لَكنّهم جاءوا ليتخم غيرهم بجنى أيديهم . ولبسوا العري ليختال غيرهم بالدمقس والأطالس . وعانوا من الجهل والمرض ليتعلّم غيرهم في أحسن الجامعات ويستشفي في أحدث المستشفيات والمصحّات ! لكنّهم صاموا وصلّوا فما أجداهم صوم ولا استجيبت لهم صلاة . وزحفوا على أيديهم وأرجلهم ، وعلى بطونهم أمام أسيادهم ، فكان أسيادهم النسور والعقبان ، وكانوا هم الحشرات والديدان !

وقد جاءهم اليوم من يقول لهم : إنّكم بشر ، وإنّكم متساوون في الكرامة الإنسانيّة وفي الحقّ وفي الحياة . والعمل هو السيّد في الأرض . له وحده العزّة والقوّة والجاه والسلطان . على أن يكون عملاً فيه الخير والبركة لأجساد النّاس وعقولهم وقلوبهم ، وعلى أن يكون أداة جمع لا أداة تفرقة لهم . فلا يقيم الحواجز بين شعب وشعب ، أو بين بلد وبلد ، أو بين إنسان وإنسان . وإنّكم لعائلة واحدة ليس يرهقها أن تعول القاصر والعاجز فيها . ويرهقها أن يسطو على معجنها الطفيلي والفضولي والأشعبي . أولئك هم السوس الذي لا يزرع ولا يحصد . ولكنّه يعيش فساداً بالقمح من بعد أن يُجمع في الأهراء .

لم يكن من العجب أن تتجاوب الأرض بأصداء الثورة الروسيّة – وتلك هي الأهداف التي أعلنتها للملإ . وكان من العجب لو أن الأمر لم يكن كذلك . ففي كلّ بلد أكثريّة تستغلّها أقليّة .

إلاّ أن النّاس – وأنا في جملتهم – كانوا يعرفون أن المبادىء على الورق شيء وتطبيقها عمليّاً شيء آخر . لذلك باتوا يرقبون كلّ حركة تقوم بها الثورة من بعد أن تغلّبت على مناوئيها وانصرفت إلى تعمير بيتها وتنفيذ مناهجها . فما طال حتّى سمعنا بتمرّد صغار التجّار عليها ، ومعهم كبار الملاّكين من الفلاّحين . وكانوا يدعونهم « كولاك » . والكلمة تعني بالروسيّة جُمْعَ الكَفّ . وقد أطلقوها على كبار الملاّكين من الفلاّحين لما اشتهر من جشعهم وبخلهم وقسوتهم . ولكن لينين ، بما كان يملكه من حكمة وحنكة وبُعد نظر ، تمكّن من إخماد ثورة التجّار والكولاك .

ثم لم يلبث أن مات لينين . فذرّ قرن الفتنة ما بين قوّاد الثورة . وكان الخصام بين تروتسكي وستالين . وانتهى الخصام بتشريد تروتسكي و « تطهير » الحزب من أعوانه . وعادت الثورة تبني بيتها بحماسة فائقة وخلف ستار من التكتّم الشديد . وهو الذي عُرف فيما بعد بالستار الحديدي . وأخذنا نسمع ونقرأ عن « الكولخوز » و « السوفخوز » . وعن

منظمات الشبيبة الشيوعيّة ، ومشاريع السنوات الخمس ، والتقشّف الذي فرضته هذه المشاريع على الشعب في شتّى مرافق الحياة . حتّى إن ستالين قال قبيل الحرب الأخيرة : « الآن نستطيع أن نتبسّم . »

ثمّ كانت الحرب العالميّة الثانية ، وكانت ستالينغراد . وإذا بالثورة الروسيّة تملأ أبصار الأرض ومسامعها . وإذا بعَلَم الشيوعيّة يرفرف فوق بلدان كثيرة في أوروبا الشرقيّة ، فلا تلبث أن تنضوي تحته بلدان في الشرق الأقصى من بينها الصين بملايينها الستمئة . ناهيك بالملايين من الذين فتحوا قلوبهم وأفكارهم للشيوعيّة في غربي أوروبا ، وفي أميركا اللاتينيّة وغيرها من الأقطار . حتّى لبات من الأكيد أن للشيوعيّة ألسنة وعيوناً وآذاناً في كلّ مكان .

لقد فاقت معركة ستالينغراد بهولها وروعتها وأهميتها كلّ ما سبقها من معارك على مدى العصور . فكانت المعركة الحاسمة في الحرب العالميّة الثانية . والأهمّ من ذلك أنّها كانت نقطة تحوّل عظيم في تاريخ البشريّة . فلولاها لما أصبحت الشيوعية تهيمن اليوم على نصف سكّان المعمورة . وهذا التحوّل ما كان يتوقّعه ألدّ النّاس عداوة للشيوعيّة ولا أشدّهم حماسة لها . وعلى الأخص حلفاء روسيا في الحرب الذين ما إن توقفت رحى الحرب حتّى باتوا يشعرون أن انتصارهم على النازية

بمعونة الشيوعيّة لم يكن انتصاراً لهم . بل للشيوعيّة العالميّة . فكأنّهم هربوا من الدبّ إلى الجبّ . أو « من الدلفة إلى تحت المزراب » . إذ ان انتصار الشيوعيّة سيعني ، في النتيجة ، تقويض الأسس التي تقوم عليها حياتهم الاقتصاديّة والاجتماعية. لذلك ما لبثوا أن تنكّروا لحليفة الأمس . وراحوا يقيمون الحواجز في وجهها . ويحكمون الحصار عليها لعلّهم يخنقونها . وقد شبّت عن الطوق واشتدّ ساعدها وبأسها . من بعد أن أخفقوا في خنقها وهي طفلة في المهد .

وهكذا انتهت الحرب على النازية لتعود وتنشب في الحال بين الذين تعاونوا على البطش بالنازيّة . ولكنّها ما تزال . حتى اليوم . حرباً دعوها « باردة » . ولا شكّ في أن الذي لقّبها كذلك عليه مسحة من عبقر . إذ كيف تصف ما نحن فيه منذ سنة ١٩٤٥ من قلق وحذر وخوف وتوتر أعصاب ؟ إنّه الحرب ، ولكن بغير نار . فالأثير ينوء بالتّهم النكراء ، وبالشتائم والمثالم يتراشقها المعسكران صباح مساء . والصحف تسيل أعمدتها بالبغض والحقد . وبالتهديد والوعيد . والنّاس في كلّ مكان مكرهون على تغذية خزانة الدولة بقسط وفير من نتاج أدمغتهم وسواعدهم لينفق جلّه على المدافع والدبابات ، وعلى الصواريخ المسيّرة والطائرات ، وعلى كلّ ما من شأنه ، متى وقعت الوقيعة ، أن يعبث بأجسادهم وأرواحهم ، وبكلّ

ما شادوه على مدى آلاف الأجيال . فكأنّهم لا كانوا ولا كان . وليس بينهم من يستطيع أن يصوّر لنفسه الميتة التي سيموتها — كيف تكون وأين ومتى تكون . أتكون احتراقاً بطيئاً ، أم اختناقاً سريعاً ؟ وتكون في البحر أم في البرّ أم في الجوّ ؟ وتكون في اللّيل أم في النهار ؟ أتأتيه المنيّة وهو في فراشه ، أم تدركه ويده ترتفع إلى فمه لتضع فيه كسرة من الخبز يُسكت بها ضجيج معدته ؟

في مثل هذا الجوّ المحموم تصاب العواطف بالغليان والفكر بالشلل . فلا عجب أن ترى في النّاس مَن إذا ذكرت لهم الشيوعيّة رَكِبتَهم في الحال نوبة عصبيّة . ومنّا إذا حدّثتهم عن الرأسماليّة هاجوا وماجوا ، وأرغوا وأزبدوا . فالشيوعيّة عند الأوّلين ما جاءت إلاّ لتهدم العالم . هكذا أقنعتهم الدعاوة الرأسماليّة . والرأسماليّة في نظر الأخيرين هي عنوان الظلم والجشع والاستثمار ، والوكر الذي منه تنطلق مطامع الاستعمار . هكذا علّمتهم الدعاوة الشيوعيّة .

إلاّ أن هنالك بعض الذين لم تسلبهم الدعاوات بقيّة من اتزان في التفكير والشعور . وهؤلاء لا ينطلي عليهم ادعاء الرأسماليّين بأن « الحرّيّة » قد استقرّت في قلوبهم دون سائر القلوب ، وفي بلدانهم دون سائر البلدان . وأن الشيوعيّة ما جاءت إلاّ لتهدم وتستعبد . فلو صحّ قولهم فيها إنّها قوّة

« هدّامة » لا أكثر لكان حريّاً بها أن تهدم البلاد التي نشأت فيها أوّلاً . ولكنّها ، بدلاً من ذلك ، قد تمكّنت من تعمير بلادها ومن الوصول بها إلى درجة من التفتح العلمي والزراعي والاقتصادي لا يُستبعد معها أن تتفوّق بعد حين على أبعد دول العالم تقدّماً في هذه الميادين . ناهيك بما كان من استبسالها في « ستالينغراد » . ولو أنّهم – وأعني الرأسماليّين – كانوا أحراراً حقّاً لما استعبدوا أيّ شعب من الشعوب ، ولكان همّهم الأكبر نشر الحرّيّة والعدالة في كلّ بقعة من بقاع الأرض .

كذلك لا يزال في العالم أناس لا يؤخذون بالوعود المعسولة التي تنثرها الشيوعيّة يميناً ويساراً ، وفي كلّ الفصول ، بأنّها ، إذا استتبّ لها الأمر ، ستجعل من الأرض فردوساً أين منه فردوس آدم وحواء قبل « الخطيئة » . فلا جهل ، ولا فقر ، ولا مرض ، ولا ظلم ، ولا عبوديّة ، ولا نزاع من أيّ نوع . بل هنالك نور للجميع ، وبحبوحة من الخير والعافية والعدالة والحرّيّة والسلام الذي لا يشوبه أيّ خصام .

من عزلتي في سفح صنّين[1] ، حيث التراب والصخر والشجر والماء والهواء والسماء تتنفّس جميعها جمالاً وسكينة

[1] قمة شهيرة في جبال لبنان .

وسلاماً ، كنت أتتبّع « معارك » الحرب الباردة التي جاءتنا في أعقاب حرب حامية ، طاحنة ، ما برح النّاس يرتجفون لأهوالها ، ويتلفتون إلى الوراء فلا يكادون يصدّقون أنّهم باتوا في منجى من لهيبها الماصر وقعقعتها الجهنّميّة . وكان يؤلمني أشدّ الألم أن أرى النّاس في كلّ مكان يستجيبون لدعاوات الحرب الباردة وينجرفون بتيّاراتها . ويركبون رؤوسهم تحمّساً لهذا المعسكر أو ذاك من معسكراتها . حتى كأن مصيرهم ومصير الكون كلّه رهن بما تتمخّض عنه حربهم . فإن جاءت الغلبة في جانب هذه الفئة بات النّاس أسياد أنفسهم وأسياد الطبيعة. فلا ظلم ، ولا جوع . ولا جهل ، ولا حرب . ولا ألم ، ولا حزن . ولا شيء ممّا يعكّر عليهم صفاء حياتهم من يوم ليوم . ومن المهد حتى اللّحد . وإن جاءت الغلبة في جانب الفئة الأخرى انعكست الآية . وكان حظّ النّاس من دنياهم أسوأ من حظّ نعجة بين جماعة من الذئاب .

إنّ هذا الانحطاط الشائن في تفكير النّاس ومشاعرهم كلّما أدركتهم حمّى الحرب هو ، في نظري ، الهول الأكبر والأفظع في كلّ حرب ، حامية أو باردة ، يخوضها إنسان ضدّ إنسان . فالغلبة في جميع حروب النّاس منذ أن استوطنوا الأرض ، ومنذ أن عرفوا الحرب ، ما كانت يوماً لأمّة ضد

أمّة ، أو لمعسكر ضدّ معسكر ، أو لمذهب ضدّ مذهب . بل للنظام الكوني الذي لا يطيق أي عصيان له أو خروج عليه . ولذلك يبلو النّاس بالوجع كلّما حادوا عنه واتّخذوا لأنفسهم نظاماً غيره . فكأنّه بالوجع يؤدّبهم ويقول لهم :

« إني أريد لكم أن تعرفوني . لأن من عرفني أحبّني . ومن أحبّني طاوعني . ومن طاوعني كانت له الحرّيّة والحياة . ومن جهلني أبغضني ومن أبغضني عاندني . ومن عاندني كان حليف العبوديّة والموت .

« وأنا ما سلّحتكم بأجسادكم العجيبة إلاّ لتكون السّياج لما هو أعجب منها بكثير . وهو العقل والخيال والوجدان والإرادة . فهذه هي العدّة الّتي بها تعرفونني . فإن أنتم انصرفتم إلى العناية بالسياج فوق عنايتكم بما هو ضمن السياج سددتم عليكم أبواب المعرفة ، وحكمتم على أنفسكم بالجهل والعذاب .

« وها أنتم يشغلكم جوع البطن أكثر ممّا يشغلكم جوع العقل . ويلهيكم خصب الأصلاب والأرحام عن عقم الخيال ، وعري البدن عن عري الوجدان . وصلابة الساعد عن ميوعة الإرادة . ثم ها أنتم تتخاصمون وتتقاتلون على ما بذلته لكم في الأرض وغير الأرض من وسائل تقوّمون بها أود أجسادكم . فيتخم منكم قوم ويجوع قوم . ويبطر القليل ويذلّ الكثير .

وأنا ما بذلت الذي بذلته إلاّ ليكون عوناً للجميع على التقرّب مني والاهتداء إليّ . أمّا خصامكم عليه فمن شأنه أن يقصيكم عنّي لأنّه حرب عليّ . وهي حرب لن يُكتب لكم فيها غير الانسحاق والانكسار والموت .

« تتقاتلون على حبّة من القمح ، وعلى قطرة من النفط ، وعلى حفنة من الرمل . وبقتالكم تحطّمون المفاتيح التي تحملها إليكم حبّة القمح ، وقطرة النفط ، وحفنة الرمل إلى السرّ الذي هو سرّي ، والميزان الذي هو ميزاني . وهكذا تطبقون أيديكم على ما تحسبونه كسباً عظيماً . وإذ تفتحونها تجدونها أفرغ من الفراغ . فتمضون والخيبة ملء أفكاركم ، والألم ينهش قلوبكم نهشاً . ثمّ لا تلبثون أن تعودوا إلى الحرب لتتذوّقوا آلاماً جديدة ، وخيبات فوق خيباتكم .

« ما بمثل هذه الوسائل تُدرَك المعرفة — معرفتي . فأنا ما عرفني — ولن يعرفني — مَن في قلبه ظلم وجشع وحقد وبغض ؛ ومَن في فكره صلف وغطرسة وادعاء ؛ ومَن وجدانه بميزانين — واحد له ، وواحد لقريبه ؛ ومَن إرادته لا تنشط إلاّ للبطش بالغير . »

وممّا زاد في ألمي من هذه الحرب الباردة أن الخصمين الأكبرين فيها هما البلَدان اللذان سلخت فيهما أغنى سني عمري خبرةً وذكرى . وكلاهما ، بما أغدقت عليه الطبيعة

من سعة في الرقعة وخصب في النفس والتربة ، مؤهّل وحده لأن يدفع بالإنسانيّة أشواطاً إلى الأمام . فكيف بهما إذا اتّفقا وتعاونا ؟ وعلى الأخص في هذه الفترة التي أحرز فيها العقل البشري أعظم انتصاراته ، إذ دخل قلب الذرّة وأطلق ما فيها من قوى هائلة ما كانت تخطر له من قبل في بال . وها هو ، وقد أذهله انتصاره العجيب ، يقف حائراً ، وجلاً أمام القوى التي أطلقها ، فما يدري ألخيره أطلقها أم لويله. ففي استطاعتها ، إذا هو أحسن توجيهها ، أن تجعل منه سيّد الأرض ، وأن تقفز به إلى مستوى من الراحة والبحبوحة والمعرفة ما بلغه أسلافه حتى في الحلم ، ثمّ أن تكون في يده المفتاح إلى أسرار كثيرة ما تزال مغلقة عليه . أمّا إذا هو أساء توجيهها فمن الأكيد أنّها ستقضي عليه وعلى كلّ ما اختزن من قوّة وخبرة ومعرفة في خلال حياته الطويلة على الأرض .

والبلدان اللذان يكادان يحتكران اليوم الطاقة النوويّة هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . إنّهما الدولتان الأوفر غنًى ونشاطاً وفتوّة من كلّ دول الأرض . فتاريخ روسيا الحديثة لا يعود إلى أبعد من بطرس الأكبر (١٦٧٢ — ١٧٢٥). وتاريخ الولايات المتحدة يبدأ بثورة الاستقلال (١٧٧٦) .

لقد قامت الولايات المتحدة بثورة دمويّة في سبيل استقلالها من الاستعمار والاستثمار . وتلك الثورة ، والدستور الذي

تمخضت عنه ، هما الأثر الذي ما تزال أميركا تعتزّ به فوق اعتزازها بأيّ أثر آخر من آثارها . ثمّ لم ينقضِ القرن على استقلالها حتّى خاضت أميركا حرباً أهليّة كاسحة في سبيل الحفاظ على وحدتها . وجاءت الثورة الصناعيّة فكان لها اليد الطولى في دفعها إلى الأمام ، لا سيّما من بعد الحرب العالميّة الأولى . إذ كانت أميركا دولة مستوردة فأصبحت دولة مصدّرة . ومكّنتها الحرب العالميّة الثانية من توسيع صناعاتها إلى أقصى الحدود لأنّها لم تنلها بأذى ، في حين أنّها عطّلت صناعات أوروبا وسائر العالم . وهكذا وجدت أميركا نفسها أغنى دولة في أفقر عالم .

وبعد ما يقارب القرن ونصف القرن اقتفت روسيا خطى أميركا . فقامت هي الأخرى بثورة دمويّة على مستعمريها ومستثمريها . وليس من الضروري أن يكون المستعمر والمستثمر غريباً عن البلاد . بل قد يكون أشدّ وقعاً عليها وأفظع تنكيلاً بها إذا هو جاءها منها وفيها كما كانت الحال في روسيا على يد القياصرة والأشراف وكبار الصناعيّين والملاّكين . ورافقت الثورةَ السياسية ثورةٌ صناعيّة قفزت بروسيا من مؤخرة القافلة البشريّة إلى مقدمتها . وذلك في خلال عقود أربعة لا أكثر . ومع الثورة السياسيّة والصناعيّة مشت في البلاد ثورة اجتماعيّة . ولعلّ هذه الأخيرة هي التي تضفي على

الثورة الروسيّة لونها الخاص وأهميّتها الكبرى ، وتجعل منها ثورة فريدة في تاريخ الثورات حتى اليوم .

لقد كانت الثورة الأميركيّة ، في نظر الأميركيّين . ثمّ الحرب الأهليّة بين الشمال والجنوب ، ثمّ الثورة الصناعيّة ، تطوّراً طبيعيّاً في حياة بلادهم – وتطوّراً يفخر ويباهي به صغيرهم وكبيرهم . لذلك كان من المؤمّل ، بل من المعقول ، بل من المحتوم أن تكون أميركا في طليعة المهلّلين والمكبّرين لثورة مماثلة لثورتها تقوم في أيّ بلد آخر من بلدان الأرض . وأن تحسب تلك الثورة تطوّراً طبيعيّاً في حياة ذلك البلد . إلاّ أن أميركا أجفلت من الثورة الروسيّة ، ووقفت منها موقف الخصم منذ ولادتها . فلماذا هذا التناقض الغريب ؟

أتكون الثورة نعمة وبركة وتطوّراً إلى الخير والفلاح إذا هي قامت على أرض أميركيّة ؟ وتكون عكس ذلك إذا هي قامت على أرض روسيّة ؟ أم أنّ الثورة لا تكون ثورة إلاّ إذا توقّفت عند حدود بعينها تفرضها اعتبارات بعينها ؟ كأن تمس الثورة الحكّام الظالمين ، ولا تمس مصالح المحتكرين والمستغلّين والطفيليّين ، ولا امتيازات المتاجرين بالدين . أيسري التطوّر على بعض من الإنسان ، وبعض من حياته ، وبعض من الكون ، ولا يسري على الإنسان كلّه . وحياته كلّها ، وعلى الكون كلّه ؟ وإذن ففيمَ تخوُّف الأميركيّين

وغير الأميركيّين من امتداد الثورة الروسيّة إلى جميع نواحي الحياة البشريّة – بما في ذلك الناحية الدينيّة ؟

ألم تكن المسيحيّة أعنف ثورة على شعوذات الكتبة والكهنة والفرّيسيّين ؟ وهؤلاء ، مع ذلك ، كانوا في الظاهر يعبدون ربّاً ما يزال تُبّاع المسيح يعبدونه . وهل مَن يُنكر أن بين تُبّاع المسيح اليوم كتبة وكهنة وفرّيسيّين بغير عدّ ؟ وكيف للإنسان أن يتطوّر إن لم يتطوّر دينه كذلك ؟ ألعلّ الإنسان للدين أم الدين للإنسان ؟ ثمّ هل كُتِبَ على الإنسان أن يكون عبداً للكتبة والكهنة والفرّيسيّين حتى نهاية الزمان ؟

ما أظنّ الأميركيّين والسائرين في فلكهم من السذاجة بحيث لا يميزون بين لباب الدين وقشوره . فالدين الذي هو في جوهره شعور وفكر يستطيع أن يحيا كأيّ شعور وفكر في معزل عن عيون الحكّام والرقباء ، وفي مأمن من رصاص البنادق وشفار السيوف ، وفي غنًى عن الكهّان والمباخر والهياكل . وهو إذ يحيا كذلك يكون صلة لا تنقطع بين الإنسان وربّه . أمّا إذا خرج إلى دنيا الطقوس والمظاهر المتحجّرة فمن شأنه أن يتحجّر فيغدو غلاًّ لا جناحاً .

ولا أظنّ الأميركيّين والدائرين في فلكهم من البساطة بحيث يعتقدون مخلصين أنّهم بمناهضتهم للثورة الروسيّة وبتكديسهم لشتى الأسلحة ، وعلى الأخص النوويّة ، إنّما

يدافعون عن السلم والحرّيّة . فلا السلم ولا الحرّيّة من الطرائد التي يمكن صيدها بالحديد والنّار . ولو أنّهما كانا كذلك لما كان تاريخنا سلسلة حروب وثورات

إلاّ أن في الأمر ما ليس يمتّ إلى الدين والسّلم والحرّيّة بأيّة صلة . وذلك أن الثورة الروسيّة قد حرّكت قوى بشريّة هائلة ليس في روسيا وحدها بل في كلّ بقعة من بقاع الأرض . وهذه القوى كانت في شبه غيبوبة أو سُبات . فانتفضت من غيبوبتها وراحت تبني عالماً من طراز جديد . وكان لا بدّ لها في بنيان عالمها الجديد من أن تهدم القديم وتستعين ببعض أنقاضه . ولأن في الأرض التي يقطنها ألفان وخمسمئة مليون من الآدميّين بضعة آلاف من الذين أغدق عليهم العالم القديم الثروة والجاه والسلطان — ولا أقول الراحة والطمأنينة والسعادة — فقد قامت هذه القلّة تدافع عن عالمها بضراوة وشراسة . تساندها في ذلك الثروة الطائلة التي في يدها — تلك الثروة التي لا تملك شيئاً من العلم والفن والدين . وتملك الدهاء والقدرة على استخدام أكبر العلماء والفنّانين ورجال الدين في الوصول إلى أغراضها . إنّها — أي القلّة الثريّة . الوجيهة . المتسلطنة — مصمّمة على الاحتفاظ بعالمها وهدم العالم الذي قام ينازعها في أرضها وفضائها . وإذا شعرت أن ذلك سيكون فوق طاقتها فهي مصمّمة على هدم العالمين معاً . فكأنّها

شمشون الجبّار يشدّ على عمودَي الهيكل ويصرخ : « عليّ وعلى أعدائك يا ربّ ! » فينهار الهيكل عليه وعلى أعدائه .

حتى في سفح صنّين كانت تلاحقني صور ذلك الصراع العنيف بين أنصار الثورة الروسيّة وأضدادها . وكان بعض الذين عرفوا عن علاقتي القديمة بروسيا يسألونني من حين إلى حين : « أما تحبّ أن تزور روسيا اليوم لتقابل بينها وبين روسيا الأمس ؟ » فكنت أُجيب : « لن أتردّد إذا سنحت الفرصة . »

وسنحت الفرصة في ربيع العام الماضي عندما سألني سفير روسيا في لبنان – وكان لا يزال وزيراً مفوّضاً – وقد التقيته في حفلة أقيمت في بيروت لمناسبة مرور خمس وسبعين سنة على وفاة دوستويفسكي : « إذا دُعيتَ إلى زيارة بلادنا أتقبل الدعوة ؟ » قلت : « بطيبة خاطر . »

وجاءت الدعوة بعد قليل من اتحاد الكتّاب السوفيتيّين في موسكو . فلبّيتها وغادرت لبنان في اليوم الأوّل من شهر آب سنة ١٩٥٦ .

في الطريق

مضى نصف قرن بالتمام منذ أن قمت بسفرتي الأولى إلى روسيا . ولكنّه نصف قرن تمخّض عن أغرب الأحداث . وأعجب الاكتشافات ، وأروع الاختراعات . وجاءت هذه الأحداث والاكتشافات والاختراعات تزحم بعضها بعضاً كأنّها خلائق أسطوريّة كانت محصورة في قمقم ثمّ أتاها من يفتح لها فم القمقم . والذي فتح لها القمقم ما كان غير الإنسان بخياله الجبّار . وفكره العنيد الذي لا ينفكّ يفتّش عن القماقم السحريّة ليحطّمها ويطلق ما فيها من سحر .

لقد باتت الطائرة شيئاً مألوفاً لدينا . ونسينا أنّها قبل أن تولد على أيدينا كانت أحد الأحلام العِذاب الّتي حلمناها منذ أوّل عهدنا بالأرض ، وأنّها قد أباحت لنا حرمة الأجواء الّتي ظلّت محرّمة علينا في خلال آلاف القرون . فما بقينا نحسد الفراشة والوطواط . بل أصبحنا ننظر حتّى إلى جناح النسر مثلما ينظر الملاّح الذي يخوض المحيطات إلى شراع فوق

زورق يصنعه ولد من الورق ويجريه في طست من الماء .

وها أنا ، على متن هذه الطائرة التي تحملني من بيروت إلى آثينا إلى مونيخ إلى براغ ، أكاد أنسى أنني محمول على جناحي أعجوبة من أعاجيب هذا العصر ، وأن هذه الأعجوبة من صنع بشر مثلي ، وأن الذي يقودها إنسان سويّ لا عفريت من عفاريت سيّدنا سليمان .

إلاّ أنّني لا ألبث أن أفيق من غفلتي . فتأخذني نشوة من الاعتزاز بجبروت الإنسان وقدرته على هتك الحُجُب ، ودكّ الحواجز ، وتذليل العقبات التي تقوم في وجه تفتّحه ، وامتداده ، وانطلاقه . ويبدو لي أن جميع ما أحرزه حتى اليوم من انتصارات في كفاحه مع المجهول ليس سوى القطرات الأولى من الغيث الذي سيهمي فيما بعد سخيّاً مدراراً . وأنّه سيأتي زمان يلتفت فيه الإنسان إلى الوراء فيضحك من هذه الطائرة التي أحسبها أنا الآن آيةً في السرعة والإتقان مثلما نضحك نحن من مركبة تجري على عجلات مربّعة أو مسدّسة . بل إنّه سيضحك منّا نعتزّ بمثل هذا الجهاز الضخم والمعد لنقل أجسادنا من مكان إلى مكان . إذ سيكون في إمكانه أن ينتقل ساعة يشاء وإلى حيث يشاء بقوّة الفكر والإرادة لا أكثر . ولعلّ أبشع ما سيأخذه علينا الآتون من بعدنا هو اقتتالنا على هذه الأرض وخيراتها في حين أنّنا نقطن عالماً لا حدود له ،

ولا نفاد لخيراته . وليست الأرض منه بأكبر شأناً من سلحة ذبابة على صخرة في رأس جبل .

في هذه الغمرة من التأمّلات تدركني أُمنيّة غريبة . وهي أن تصعّد طائرتنا في الفضاء وتمعن في التصعيد إلى درجة نعتق عندها من ربقة الأرض . وتمحى معالمها من أبصارنا لعلّ مشكلاتها تمحى من أذهاننا . فلا شرق وغرب . ولا شيوعيّة ورأسماليّة . ولا استعمار واحتكار . ونضال ضدّ الاحتكار والاستعمار . ولا نفط . ولا دولار . ولا روبل . ولا سباق لكسب الأسواق . ولا مراكز استراتيجيّة . ولا محالفات عسكريّة ، إلى آخر المعزوفة الجهنّميّة التي هي اليوم شغل بني الأرض الشاغل .

« يبدو لي أن مشكلة السويس تزداد تعقّداً يوماً بعد يوم . »

نطق جاري الإنكليزي بهذه الكلمات . وببرودة إنكليزيّة . من غير أن يدري أن فعلها فيّ سيكون أفظع من فعل نداء فجائي لرجل يمشي في نومه . وعندما رفع بصره عن المجلّة التي في يده وصوّبه نحوي ما أظنّ أنّه قرأ على وجهي شيئاً من الامتعاض الذي تملّكني عن غير وعي منّي . ولا أظنّ أنّه حفل بجوابي الذي كنت فيه إنكليزيّاً أكثر منه . إذ قلت ببرودة كبرودته . بل أبرد :

« هكذا يبدو . »

وتوقّفت مطارحتنا عند هذا الحد . إلاّ أنّها نبّهتني إلى ما يجري حوالي . فالمضيفة آخذة بنقل صواني الغداء إلى الركاب . وهي توقظ النّائمين منهم . وتساعد البعض في تركيز صينيّته أمامه . فالبطون لا تتخلّى عن حاجاتها وملذاتها حتى في أعالي الجوّ . والنّاس ، أينما كانوا ، حريصون كلّ الحرص على تلبية نداء البطن إذا جاع ولو بكسرة من الخبز ، أو ببصلة ، أو بحبّة من الزيتون . إلاّ أنّهم ، في الغالب ، يتنافسون أشدّ التنافس في تغنيج البطن واستنباط الملذات له . فلا حصر للأشياء التي ينهبونها له من الجوّ والماء والغاب والتراب ، ولا لأشكال المآكل والمشارب التي يُعدّونها من هذه الأشياء ، ولا للأدوات التي يستعينون بها في إعداد هذه المآكل والمشارب. والقصد من ذلك ليس إسكات جوع البطن لا أكثر . بل القصد إشباع نهم البدن كلّه إلى المتعة واللذّة حتى وإن كان له في مثل تلك اللذّة وجع وضنك وانحلال بعد حين .

والنّاس حريصون في هذه الأيّام – وعلى الأخصّ أصحاب الدعوة الماركسيّة – على أن لا يكون في الأرض مَن نصيبهم من خيرات الجوّ والماء والغاب والتراب كسرة خبز ، أو بصلة ، أو حبّة زيتون . بل هم يريدون لجميع أبناء الأرض أن ينعموا بما تخلقه المطابخ الحديثة من لذائذ للبطن ، على أن يكون لهم نصيب من الجدّ والعمل في تحصيل المواد

التي تُطهى منها اللذائذ . وإني ، مجاراة لهذه النزعة الرامية إلى المساواة بين البطون ، أحبّ أن أتخيّل عالماً ينعم كلّ من فيه بمثل ما ينعم به اليوم أكبر المترفين من أطايب العيش . هل تراه يكون عالـماً سعيداً ؟ إذا كان لنا أن نساوي بين البطون ، فأنّى لنا أن نساوي بين العقول والقلوب ، وبين مقدرتها على التفهّم والتحسّس والاستمتاع ؟

لعلّك تساوي بين بقرتين ، أو نعجتين ، أو خنزيرين إذا أنت قدّمت لهما عين العلف ، وعين الخدمة ، وعين المأوى . إلا أنّك ، مهما حاولت ، لن تساوي بين رجلين ، أو امرأتين ، أو طفلين حتى وإن وفّرت لهما أشهى الغذاء ، وأمرأ الشراب ، وأجمل اللّباس ، وأفخم المسكن ؛ ثمّ صنتهما من المرض ، وكشفت لهما جميع ما توصّلنا إليه من علوم وفلسفات وفنون وروحيات ؛ ثمّ وفّرت لهما كلّ أسباب التسلية ، وأحدث أساليب المخابرات والمواصلات . فقد يبكي الواحد لموت عصفور وينتشي الآخر بقتله وأكله . وقد ينتحر هذا بسبب كلمة يحسبها إهانة لشرفه ، وتبصق في وجه ذاك فيحسب بصقتك صابوناً يغسل به وجهه . وقد يصوم رجل ويصلّي لأن في قلبه جوعاً إلى ما هو أثمن وأشهى من الخبز والماء ، في حين يضنّ رفيقه بكسرة خبز على فقير لأن الخبز في نظره هو الغنى — كلّ الغنى — وهو يريد أن

يحتكره لنفسه .

إن هذا التفاوت في حظوظ النّاس من التفهّم والتحسّس والاستمتاع لممّا يستحيل أن تستأصله المساواة في حظوظ النّاس من خيرات الأرض وأطايب العيش . إلاّ أنّها ، من غير شكّ ، قمينة بأن تخفّف من حدّته . ولذلك فهي من الضرورة بمكان . أمّا أنّها تصلح لأن تكون لحياتنا هدفاً وأساساً فقول ينطوي على الكثير من الخفّة وقصر النظر . ذلك لأن الإنسان كائن عجيب ما أدرك حتّى اليوم وشلاً من بحر من العجائب التي ينطوي عليها كيانه . فهو ، وإن أسكنته أبدع القصور ، وألبسته أفخر الملابس ، وأطعمته ألذّ الطعام ، وأحطته بأغرب ما يسلّي العين والأذن ، تمرّ به ساعات وأيّام يحسّ فيها فراغاً هائلاً في نفسه ، وجوعاً ضارياً في قلبه وفكره . وهذا الجوع لا ولن تشبعه ديموقراطيّة « توماس دجفرسن » ولا ديكتاتوريّة البروليتاريا . وذلك الفراغ لا ولن تملأه بيانات البيت الأبيض في واشنطن ولا تصاريح الكرملين في موسكو . فالبطن هنا وهناك لا يزال له المقام الأشرف والأكبر .

نعمّا أيّها البطن ! لأنت سيّد كلّ سيّد ، وحاكم كلّ حاكم ، وقاضي كلّ قاضٍ في الأرض . باسمك تحبل وتلد النساء ؛ وباسمك تُبنى الأكواخ والقصور ، وتُغرس الكروم ،

وتُحرث الحقول ، وتُغزى الغابات والفلوات ، ويُذبح الثور والشاة ، وتسيّر البواخر في البحار والطائرات في الأجواء ؛ وباسمك يصوم الصائمون ، ويصلّي المصلّون . ويُحرَق البخور ، وتُقدَّم القرابين ؛ وباسمك تُساق الجيوش إلى حتوفها ، وتُصنع المدافع والدبّابات . والقنابل الذريّة والهيدروجينيّة ؛ وباسمك يتوجّع المتوجّعون . ويرقص الراقصون ، ويعربد المعربدون ، ويسرق السارقون . وإذا سمعت النّاس يتغنّون بالحرّيّة فاعلم أنّهم باسمك يتغنّون . وإذا رأيتهم يتقاتلون على فتر من التراب ، أو ذرّة من التبر ، أو قطرة من النفط ، أو على ممرّ في البحر أو في البرّ أو في الجوّ ، فاعلم أنّهم باسمك يتقاتلون .

نعمّا ، نعمّا أيّها البطن !

وجاءت المضيفة بابتسامتها المصطنعة الّتي توزعها أبداً ذات اليمين وذات اليسار . فناولتُها الصينيّة الّتي أمامي من بعد أن تسرّب جُلّ ما في الأطباق عليها إلى بطني . والتفتُّ نحو النافذة ، وكنت أحسد جاري الإنكليزي لأنّه جالس بجانبها . وإذا بي ألمح دنيا ما تراءى لي مثلها يوماً ولا في المنام . وشعر جاري بانحراف رأسي وجميع جسمي في اتجاه النافذة . وكان لطيفاً جدّاً . فنهض للحال من مكانه وقال برقّة متناهية :

« لعلّها المرّة الأولى تطير فيها فوق جبال الألب . أمّا

أنا فقد طرت فوقها مراراً . خذ مقعدي وأعطني مقعدك . »

ما هذا الذي أبصر ؟ لكأنّنا من الأرض في أحد قطبيها . فمن تحتنا مدًى لا تدركه العين له نهاية . مدًى كلّه هضاب بيض ، ووهاد يخالط بياضَها شيء من الغُبرة . وليس فيه أيّ أثر لأيّ حياة . فلا نبتة ولا حشرة . لا ما يهبّ ولا ما يدبّ . لا حصاة ولا حفنة تراب . إنّه الجليد وقد لفّته سكينة العدم .

وأسأل نفسي . وقد تملّكتها رهبة المشهد وسكينته : أين في هذا المدى وهذه السكينة مشكلات النّاس ؟ بل أين النّاس لا ينثرون مشكلاتهم في مثل هذا المدى وهذه السكينة ؟ فلعلّهم لو فعلوا لبانت لهم مشكلاتهم أضغاث أحلام : قناة السويس . فورموزا . كوريا . حلف الأطلسي . حلف بغداد . حلف فرصوفيا . البترول العربي . البترول الإيراني وغيرها وغيرها من « البعابع » التي تقضّ على النّاس مضاجعهم — كلّها أضغاث أحلام لو كان لقاهر الجوّ . وقاهر البحر . وقاهر الذرّة أن يفلت من كابوسها لحجل من خزيه وحقارته وجبنه . إذ يرى نفسه عملاقاً يتعثّر بقشّة هو الذي خلقها وهو الذي وضعها في طريقه .

ولكن النّاس ، شأنهم شأن رفاقي في هذه الطائرة ، يحملون مشكلاتهم أينما اتجهوا وحيثما حلّوا . وإذا اتّفق لهم مدى تغيب في رحابه مشكلاتهم أبوا أن يقتحموه إلاّ على

عجلات من تلك المشكلات .

لله ما أصعب على الإنسان أن يدرك عظمته كإنسان ، وأن يسلك مع أخيه الإنسان سلوك العظيم مع العظيم ! إلاّ أنّه كثيراً ما يعامل هرّاً أو كلباً في بيته خيراً من معاملته لأهل بيته . فكيف بجيرانه ، وبالذين لا لونهم لونه ، ولا لسانهم لسانه ، ولا دينهم دينه ، ولا بلادهم بلاده ؟

لقد لذّني للوهلة الأولى أن أتخيّل الهضاب والوهاد التي من تحتي جليداً . وها هي تتحرّك وتتداخل بعضها في بعض . فتغدو الهضاب وهاداً ، والوهاد هضاباً . وتعلو بعض الهضاب فتبدو قمماً شامخات . وتنخفض بعض الوهاد فتبدو أغواراً سحيقة . وبغتة ينفخت قعر وادٍ هنا ، ثمّ هناك ، ثمّ هنالك . ويا لروعة ما ينكشف لعيني من خلال تلك الفجوات ! قمم جرد ، وقمم خضر ، وقمم بيض . وسفوح فيها الأخضر ، والأحمر ، والأصفر ، والبنّي وقد امتدّت وتداخلت في أشكال هندسيّة غريبة . وتناثرت ما بينها المساكن . منها الآبد ، المتوحّد . ومنها الآنس بكثرة الجيران . منها المتكبّر . ومنها المتواضع . ومن أسفل السفح إلى أعلاه يتلوّى طريق معبّد . وعلى الطريق نقط سود متحرّكة لعلّها سيارات . ولكنّها تبدو بحجم الجُعَل . ومن جوانب الجبال تنهلّ شلاّلات بيض لتنساب في قعر الوادي أفاعيَ هائلة من لجين .

إن المدى الفسيح الذي تخيّلته في البدء صحراء من الجليد في القطب لم يكن ، بالطبع ، غير بساط من سحاب . ومن تحت ذلك البساط كانت تجري حياة بشريّة ، رتيبة بأفراحها وأتراحها ، وسعاياتها ونكاياتها ، وحركتها الدائمة في سبيل البطن وحاجاته . وكنت كلّما أطللت على قمّة ، أو وادٍ ، أو جدول ، أو حقل ، أو طريق ، أو مسكن أسألها أو أسأله : « أشيوعيّة أنت أم رأسماليّة ؟ أشيوعي أنت أم رأسمالي ؟ » ولم يكن قصدي من ذلك إلاّ لأسخر بنفسي وبإخواني النّاس الذين تشغلهم هذه الأسئلة اليوم عن أنفسهم وعن عملهم الأكبر والأهم في الحياة . ألا وهو معرفة كلّ مجهول ، وتحطيم كلّ قيد ، والتسلّط على كلّ سلطان . وذلك لن يتمّ لهم بغير التعاون . والتعاون لا يقوم بالتنابذ والتخاصم ، بل بالتفاهم والتحابب .

مونيخ ! نعم مونيخ تشمبرلين ودلاديه وهتلر . مونيخ الكارثة الّتي نزلت بنا ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ فتركتنا ذاهلين ، مصعوقين ؛ والّتي نسعى اليوم سعياً محموماً لنبزّها هولاً ، وعاراً . وبشاعة فنجعل منها حدثاً بالغ التفاهة بالنسبة إلى المهرجان الأكبر الذي نعدّه ساعة بعد ساعة لتسلية الجهل ، وتفكهة الموت ، وإكراماً لوجه إبليس ! لكنّها وقفة في مونيخ لا أكثر .

وأخيراً براغ – أوّل عرينة يتاح لي اقتحامها من عرائن الشيوعيّة ! وبيننا وبين عتمة اللّيل ساعتان . ألا كن على حذر يا ميخائيل نعيمه . فلعلّك لا تخرج من هنا إلاّ وأظفار ماركس ولينين قد مزّقت إيمانك بالله وبالإنسان شرّ تمزيق . وأعاضتك عنه معولاً لهدم كلّ صالح وجميل في الأرض . وهكذا تغدو هادماً من الهادمين !

يومـــان في براغ

عندما ذهبت إلى المفوّضية التشيكيّة في بيروت لأحصل على سمة « ترانزيت » أصرّ القائم بالأعمال على أن لا تكون أولى زياراتي لعاصمة بلاده زيارة « ترانزيت » ، وأن أقبل ضيافة حكومته ولو ليومين . فقبلت ممتنّـاً . وعندما بلغت براغ نزلت ضيفاً على الحكومة في أفخم فندق من فنادق المدينة ويدعى « آلْكرون » . وقبيل وقت العشاء أقبل عليّ مدير وزارة الثقافة مسلّماً ومرحّباً ومعتذراً لأن الذين كلّفهم استقبالي في المطار أخطأُوا الموعد فما أدركوني ساعة هبوط الطائرة . وتناولنا العشاء معاً في مطعم الفندق الرحب ، الأنيق والغاصّ بالزائرين في شتّى الأزياء ومن مختلف أقطار العالم . فقد كان فيه الصيني والأميركي ، والأندونيسي والفرنسي ، والسوري والإنكليزي ، والمصري والنروجي . بعضهم جاء سائحاً . وبعضهم جاء ليبتاع أشياء أو ليبيع أشياء . وبعضهم جاء في خدمة السياسة لا غير . وكان الطعام سخيّـاً وشهيّـاً ،

وكذلك الشراب . والخدمة على أحسن ما تكون الخدمة في أحسن الفنادق . وكان حديثي مع مضيفي باللغة الروسيّة . ولكنّه كان حديثاً يدور حول أشياء كثيرة من غير أن يقصد شيئاً بعينه .

وساعة أويت إلى فراشي ، وألقيت رأسي على وسادتي ، أخذت أفكّر في ما أنا فيه وأسأل نفسي : ترى لو كنت الآن في أوسلو ، أو روما ، أو واشنطن ، أو ريو دي جانيرو ، أو لندن ، أو باريس ، أو سيدني ، أو أيّ عاصمة أخرى من عواصم « العالم الحرّ » أكنت أشعر بأنّني أوفر راحة وحريّة ، وأقلّ غربة هناك مني ههنا ؟ ولكنّني ما لبثت أن ضحكت من سؤالي . إذ انّني ما كنت أشعر بغربة على الإطلاق . فكأن البلاد بلادي ، وكأنّني فيها ما بين أهلي وأبناء عشيرتي . وكيف أشعر بغربة بين قوم لا يضمرون لي إلاّ الخير ، ولا أُضمر لهم إلاّ الخير ؟ إنّما الشرّ وحده يباعد ما بين الإنسان والإنسان ، ويجعله غريباً حتى في بيته وبين أبناء جلدته . أمّا أنّني أبصرت وسأُبصر وجوهاً وأزياء ومشاهد ما ألفتها عيني من قبل فليس في ذلك أي غربة أو غرابة . أليس أنّني أقع في كلّ يوم على وجوه جديدة ومناظر جديدة حتى في بلدتي وبلادي ؟ وإذ ذاك فقد كان ذلك الشاعر على حقّ حين قال :

تلقى بكل بلاد إن حللت بها   أهلاً بأهلٍ ، وجيراناً بجيران

ثمّ رحت أنبش بعض ما احتوته ذاكرتي من تاريخ هذه البلاد والبلدان المجاورة لها جنوباً وشرقاً ، فأعجب لصروف الزمان كيف تتلاعب بمقدرات الشعوب ، فتباعد بين الأقرباء ، وتقارب بين الغرباء . أو قل هو النظام الكوني الذي يفعل ذلك . فالتشيك والسلوفاك والصرب والكروات والبلغار والبولونيون والروس -- هؤلاء جميعهم من عرق واحد ، ولغاتهم من أرومة واحدة . فكيف شتّتتهم السياسات والديانات ، وأوغرت قلوبهم بالحقد والتعصّب والبغضاء ، حتّى بات بعضهم يكره البعض الآخر ولا كره الفأر للقط ، والخروف للذئب ، وحتّى هان الكثير منهم للغرباء عنهم فاستعمروه وأذلّوه على مدى قرون طوال ؟

وها هي هذه الأمّة السلافية المترامية الربوع تأتيها اليوم ظروف ليست من تدبيرها ، تتصرّم فيها الأبعاد التي بينها ، وتعتنق جميعها ديناً واحداً هو دين العمل ، ودين الإنسان الذي من حقّه أن يسعد بعمله ، لا أن يشقى به ليسعد سواه ، وأن يستثمر مواهبه التي بغير حدود لخيره وخير إخوانه العاملين مثله -- كلٌّ في حقله وعلى قدر طاقته . فماذا يمنع جميع الدول السلافية من الاتحاد في دولة واحدة ؟ إنّ غنى النّاس بالدول لدليل على فقرهم إلى الفهم والنظام . ويوم يصبح العالم كلّه دولة واحدة يصبح الأمل كبيراً بالسلام ،

ويصبح في مستطاع الإنسان أن يجعل من الأرض سماء . أمّا كثرة الممالك فتعني كثرة الحدود . وكثرة الحدود تعني كثرة الأسباب للقتال . والقتال على اقتسام الأرض الّتي هي للنّاس أجمعين من شأنه أن يصرف النّاس عن قتال عدوّهم الأوحد والألدّ . ألا وهو الجهل الذي منه البغض والجشع وحبّ الثأر . والوهم بأن في استطاعة أيّ إنسان أن يسعد بشقاوة غيره ، وأن يتحرّر باستعباد جاره . وأن يحيا بموت عدوّه .

لعلّ أكبر عقبة في سبيل اتّحاد الأمم هي ما يدعونه « روح القوميّة » أو « الوطنيّة » . وهي عقبة سهلة التذليل إذا ما أجمع النّاس على تذليلها . فلم يتركوا في الأرض أيّ أثر للاستعمار . أو أيّ أثر للتمييز العرقي والديني . ولو أخلص النّاس في العمل على تذليل هذه العقبة مثل إخلاصهم اليوم في تدعيمها وتقديسها لباتت بعد جيل أو جيلين أثراً بعد عين . ولكنّني أعلم أن النّاس بما هم فيه اليوم من ذهنية . يشقيهم أن يسعدوا في جيل . ويسعدهم أن يشقوا على مدى أجيال وأجيال . ذلك لأنّهم لم يدركوا بعد أن الحياة فكر وقلب قبل أن تكون جيباً وبطناً . وعرقاً ولوناً . وحكومة وحدوداً ، وأن الإنسان عون للإنسان مهما اختلفت الأقطار والمناخات ، والألوان والأشكال . والألسنة والديانات . وكيفما كان الأمر

فأيّ بأس في أن يحلم الواحد منّا بجمال ما يمكن أن يكون إذ هو يفكّر ببشاعة ما هو كائن ؟ وإن نحن لم نحلم بغدٍ أفضل من اليوم ضاعت علينا رسالة اليوم .

في صباح اليوم التالي جاءني رجل ربع القامة ، متوسط العمر ، هادىء الصوت والملامح ، يبصر دنياه من خلال نظارتين عاديتين ، وأعلن أنّه موفد من قِبَل جامعة الكتّاب التشيكيّين ، وأنّه والسيارة التي أقلّته إلى الفندق تحت تصرّفي طيلة النهار . وعندما سألته بالروسية بأية لغة نتفاهم وجدت أنّه يحسن الإنكليزيّة أكثر ممّا يحسن الروسيّة . فاتفقنا على التكلّم بالإنكليزيّة . فاعجب لعربي من لبنان يتفاهم مع تشيكي في براغ بلغة مارلو وكيتس ! لتسترح العربيّة . ولتسترح التشيكيّة . ما دامتا لا تنفعاننا بشيء . ولتقم الإنكليزيّة مقامهما . المهم أن نتفاهم . وإني ، في سبيل التفاهم العالمي ، لمستعد أن أتنازل عن لغتي ولغة أجدادي إذا اتّفق العالم على لغة للتفاهم بين الأمم ، وإن تكن لغة الهوطنطوط .

جلنا جولة طويلة في المدينة . وكانت السماء غائمة . تمطر فترة وتكفّ فترة . فبدت الشوارع كالحة ، قاتمة ، لا بسبب الغيم والمطر فحسب ، بل لأن حجارة الكثير من البنايات التي على جوانبها كالحة ، قاتمة . وقد حرص رفيقي على تذكيري بأن المدينة قد تضرّرت في الحرب أكبر الضرر ،

وأن معظم البنايات التي أراها عن يميني ويساري هو جديد ، وأن القليل منها قديم وقد ترمّم . أمّا حركة المشاة والسيارات في الشوارع فكانت خفيفة وهادئة بالنسبة لعاصمة سكّانها مليون نسمة ، وفي بلاد كانوا يدعونها حتّى عهد قريب « بوهيميا » . والكلمة ما تزال في اللغات السكسونيّة واللاتينيّة تعني العبث والمرح واللامبالاة . ولعلّ تفسير ذلك في أن الغجر كانوا يشكلون قسماً من سكّان البلاد ؛ وكانوا . بما عرف عنهم من الميل إلى اللهو والطرب . يُضفون شيئاً من ذلك على سمعة البلاد كلّها .

لقد تبدّلت الأزمنة . فالغجر والسكّان الأصليون منصرفون اليوم عن اللهو إلى العمل الجدّي . إنّهم يبنون وطناً اشتراكيّاً. فيسابقون الزمن في رفع مستوى الزراعة والصناعة والثقافة، وفي تأمين القوت واللّباس والمأوى لجميع أبناء البلاد . ولقد قطعوا في كل ذلك شوطاً بعيداً . ولا يزالون من جهادهم في البداية .

ولكن الأزمنة . مهما تبدّلت ، تظلّ موصولة الأسباب والنتائج ، والبدايات والنهايات . ويظلّ كلّ شعب يتلفّت إلى ماضيه إذ هو يتطلّع بشوق إلى مستقبله . وها هو رفيقي يمضي بي إلى أثرين من الآثار القديمة التي تفخر بها بلاده . إنّهما قصر « هراتشاني » ويعود تاريخه إلى ٩٠٠ سنة . وكاتدرائيّة القديس « فيتوس » ، وهي من النمط الغوتي ومن أروع ما رأيت

من المعابد المسيحيّة هندسة ونحتاً وزخرفة وتصويراً . ويبدو أنّها لا تقوم اليوم بالغاية الّتي شيدت من أجلها منذ مئات السنين. فقد باتت مزاراً للسيّاح وغواة الفن والآثار لا ملاذاً للمؤمنين والمتعبّدين . وإنّك لتشعر وأنت واقف بين أعمدتها العتيّة وتحت أقواسها العالية المتشابكة بأن الأجيال تزحمك وتضغط عليك وترصدك من خلال الزجاج الملوّن في نوافذها الحافل برسوم الرسل والقدّيسين وشتّى المشاهد العزيزة على قلوب المؤمنين ، وتعجب لهذا الروح الديني الذي تملّك الإنسان منذ نشأته كيف أنّه ، على مدى التاريخ ، وعند كلّ الشعوب ، كان الينبوع الأوّل والأهم للإلهام الفني ، فجاء بالروائع الّتي لا تُثمّن بمال .

لقد خطر في بالي، وأنا أجول في أرجاء ذلك المعبد الفسيح ، طيف راهب تشيكي عاش ما بين ١٣٧٣ و ١٤١٥ وكان من التقوى ، وحرارة الإيمان ، وصلابة العقيدة بحيث لم يتورّع عن التنديد بما كان يراه من التواء في سلوك رجال الدين ، ومن انحراف الكنيسة عن روح المسيح وتعاليمه . ذلك هو «يان هُوْس» الذي نشأ في بيت فلاّح وتوصّل بذكائه المتوقّد إلى أن يشغل مركز رئيس جامعة براغ ، والذي هزّ الكنيسة الكاثوليكيّة هزّة عنيفة . فتألّبت جميع قواها عليه ، وحاكمته ، وأعلنته مارقاً من الدين ، فأباحت روحه لإبليس ،

وحرقته حيّاً . ثمّ أمرت بأن يُكنس رماده والتراب الذي من تحته ويُطرح في نهر الرين . وعبثاً حاولتْ قبل ذلك أن تحمله على « التوبة » والتنصّل من بعض أقواله وكتاباته . فقد أبَى إلاّ أن يشهد للحقّ . وكان يردّد ، والنّار تلتهم لحمه وعظمه : « ما قلتُ غير الحقّ . »

إن التشيك لجدُّ فخورين ببطلهم « يان هوس » . فقد كان له الفضل الأكبر في الإصلاح الدينيّ الذي جاء بعده على يد لوثر وكالفين وأتباعهما . ولعلّه ، لو كان حيّاً ، ومرّ معي بهذا الصفّ الطويل من كراسي الاعتراف ، وقد أُسدلت عليها ستائر قرمزيّة علاها الغبار ، لشعر بمثل ما شعرتُ : تُرى أيّ الخطايا البشريّة لم تشهدها وتسمعها هذه الكراسي وهذه الستائر ؟ وأين اليوم أولئك الخطاة وتلك الخطايا ؟ لئن جادت هذه الكراسي بالغفران على الخطاة فمنذا يجود عليها بغفران خطاياها ؟ !

من الأماكن التي زرتها في يومي الأوّل في براغ متحف « زبراسلاف » في ضواحي العاصمة . وهو مخصّص للتماثيل . والبناء غاية في الذوق . والتماثيل التي فيه وفي باحته معروضة بالكثير من العناية والإتقان . وهنا كذلك وجدت النزعة الدينيّة الكلاسيكيّة متغلّبة على سائر النزعات ، إلاّ في شغل المحدثين أمثال « كافكا » و « شتورزا » . فهذا الأخير الذي عاش

ما بين ١٨٨٠ و ١٩٢٥ يُعدّ بحقّ أخصب المثّالين التشيك وأقواهم في العصر الحديث. وفنّه مخضرم بين القديم والحديث. أمّا آثار الشيوعيّة التي يبدو فيها تمجيد العمل والعامل فما تزال قليلة في العدد والأهمّيّة.

في صباح اليوم التالي جاءني شابّ وسيم المحيّا، بشوشه، مرح المزاج، طويل القامة، يدعى «كراليك». وقال إنّه سيقوم مقام «فانيتشك» – وهو رفيقي أمس – لأن لديه أشغالاً لا تسمح له بالمجيء إلاّ بعد الظهر. وكان رفيقي الجديد كذلك من جامعة الكتّاب التشيكيّين. ولشدّ ما أدهشني عندما نطق بعبارة عربيّة فصيحة لا غبار عليها من حيث الضبط واللّفظ. إنّه يحبّ العربيّة ويدرسها ويرجو أن تتاح له الفرصة لزيارة قطر من أقطارها لعلّه يتمكّن منها ومن دراسة آثارها. إلاّ أنّه كان من الصعب عليه أن يتحدّث بها في شتّى الشؤون. لذلك اعتمدنا الروسيّة لغة المخاطبة بيننا. ومن حين إلى حين كنّا نعطي الفرنسيّة – وحتّى العربيّة – نصيباً من الحديث.

كان أبرز ما شهدته في ذلك النهار ما يمكن أن أدعوه بالعربيّة «قَصر الحَرْف» أو «قصر الكتاب». وهو كناية عن دير قديم قائم على رابية تشرف على براغ، وقد حوّلته الدولة إلى معرض للكتاب التشيكي، أو للكتابة التشيكيّة، منذ أن وُلد الحرف السلافي قبل ألف سنة ويزيد، وحتّى يومنا هذا.

إنّه لشعور غريب ذاك الذي يتولاّك إذ أنت تنتقل في سراديب ذلك الدير وغرفه الكثيرة وقد لاصقت جدرانَها الخزاناتُ المليئة بالكتب والمخطوطات والخرائط وكلّ ما ينتمي إلى الحرف بصلة . إنّه الشعور بقدرة الحرف ، وسلطانه ، وبالمدى البعيد الذي أتاحه للفكر في كلّ مكان ، وبقدسية الحرّيّة الفكريّة التي لولاها لما كانت مدنيات ولا حضارات .

ثمّ إنّه لا يسعك وأنت ترى بأُمّ عينك النظافة الخارقة في سقوف الدير القديم وأرضه وجدرانه ، والعناية البالغة بترتيب المعروضات وحفظها من التلف ، إلاّ أن تشهد للدولة القائمة على المتحف بأنّها دولة تهتم بعقل الإنسان وذوقه وفكره اهتمامها ببطنه وأكثر . وعلى الأخص من بعد أن تنتقل من السراديب الضيقة إلى البهو الكبير الذي هو في الحقّ آية من آيات الفنّ ، فسقفه العالي مغطّى بالرسوم الزيتيّة التي تمثّل الإنسان في أهم أدوار تطوّره منذ الخليقة وحتّى اليوم . فرسوم تمثل العلم ، وأخرى الفلسفة ، وغيرها الدين ، وغيرها الزراعة والصناعة . والخزانات المصنوعة من الخشب الصُّلب ، والقائمة عن جانبي البهو من الأرض حتّى السقف . مشحونة كلّها بالكتب ، ومن بينها الطبعة الثالثة من الموسوعة التي نشرها الأنسيكلوبيذيون الفرنسيّون فكانت الأولى من نوعها في العالم . وأمّا أرض البهو فمن الملاط الذي يلتمع كالمرايا ، حتى

لتتهيّب أن تطأه بحذائك ، وتخشى أن تنزلق عنه رجلاك .

في المساء جاءتني فتاة من قِبَل جريدة « براغا المسائية » – وهي أكبر جريدة في البلاد – وطلبت إليّ حديثاً . وكانت تجيد الروسيّة ، فاتخذناها وسيلة للتفاهم بيننا . حدّثتها عن انطباعاتي من جولتي السريعة في عاصمتهم القديمة – الحديثة ، وعن شعوري بأن بلادهم ذات التاريخ الحافل بالبطولات والكوارث تبدو لي اليوم وكأنّها تجدّد شبابها . فهي تعمل بزخم وحرارة وإيمان على رفع مستوى سكّانها في كلّ حقل من حقول المعيشة البشريّة . وهي واثقة من أن ما بلغته من التقدّم في عشر سنوات من حياتها الاشتراكيّة سيبدو طفيفاً وباهتاً بعد عشر سنوات أُخرى . اللهمّ أن تكون لها فترة طويلة من السلم . حدثتها كذلك عن لبنان والبلاد العربيّة ومشكلاتها . وعن اعتقادي بأن مشكلة العالم اليوم ليست في انقسامه إلى شيوعي وغير شيوعي . بل هي مشكلة الإنسان الذي ما وعى بعد قيمته وهدفه كإنسان . فهو إنسان قبل أن يكون برهميّاً أو مسلماً أو مسيحيّاً ، وقبل أن يكون رأسماليّاً أو شيوعيّاً ، وابن هذه البقعة لا تلك من بقاع الأرض .

وها أنا قد قطعت من بيروت إلى براغ أكثر من بلد . فما دريت عند اجتياز الحدود أنّني انتقلت من عالم إلى عالم ، ولا شعرت أن السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض

عندما بلغت تشيكوسلوفاكيا – البلد الأوّل على حدود دنيا الشيوعيّة من الجهة الغربيّة . بل إنّني ما عرفت الدقيقة ولا النقطة اللتين انتقلت عندهما من دنيا الرأسماليّة إلى دنيا الشيوعية.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي وافاني إلى الفندق « فانيتشك » و « كراليك » ليرافقاني إلى المطار حيث كان عليّ أن أستقلّ طائرة روسيّة إلى موسكو. وفي المطار انضمّ إلينا بعد قليل شابّ من السفارة الروسيّة في براغ وقد أوفده السفير ليودّعني وليتأكّد من أن كلّ شيء قد أُعدّ لراحتي . وعندما أزف موعد السفر ودّعت مودّعيّ شاكراً لهم لطفهم وحفاوتهم ، وحاملاً في ذهني أطيب الذكريات عن الفترة القصيرة التي صرفتُها في ديارهم .

في كعبة الشيوعية

طائرة روسيّة ذات محرّكين ، ومن صنع روسي ، وطيّارون روسيّون ، ومضيفة روسيّة ، وعشرون راكباً ، أو أكثر أو أقلّ ، معظمهم من الروس — إنّني في جوّ بحت روسي ، أو قل «سوفيتّي» . فروسيا الّتي عرفتها لأوّل مرّة منذ نصف قرن أصبحت بعد الثورة الشيوعيّة ذات اسم طويل ، مركب ، يكاد اللّسان يتعثّر بلفظه : اتحاد الجمهوريّات السوفيتيّة الاشتراكيّة . وهذا الاسم ، وإن جاء أصدق دلالة على نظام الحكم في البلاد ، وأكثر إنصافاً لشتّى الشعوب الّتي تقطنها ، إلاّ أنّني لا أزال أوثر عليه الاسم الأصيل . فهو ألطف وقعاً في الأذن ، وأخفّ عبئاً على اللّسان . ذلك مع العلم أن السوفيتيّين أنفسهم لا يستعملون الاسم الجديد بكامله إلاّ في الأمور الرسميّة . وفيما عدا ذلك فهم يتحدّثون عن بلادهم بالأحرف الأولى من اسمها : CCCP . شأنهم في ذلك شأن الأميركيّين إذ يذكرون بلادهم بالأحرف : U. S. A.

ولعلّ الروس الشيوعيّين الذين أخذوا عن الأميركان هذه النزعة إلى اختصار الأسماء قد بزّوهم فيها . فليس أكثر من الأسماء المختصرة التي تطالعك من صفحات الجرائد والمجلات والكتب ، والتي تخلق المصاعب والمتاعب حتّى لواحد مثلي لا يجهل لغة البلاد . مثال ذلك : « الكولخوز » و « السوفخوز » و « الكومسومول » و « الأونيفرماغ » و « الكومبارتيا » وعشرات غيرها . وهي مختصرة من كلمتين أو أكثر . لئن سهل عليّ أن أحزر البعض منها فما كان لي أن أحزر الكثير منها . وكيف لي أن أحزر — مثلاً — أنّ « زِيْس » ، وهي سيارة من النوع الفخم ، قد أخذت اسمها من الأحرف الأولى في اسم المعمل الذي أنتجها وهو معمل السيارات باسم ستالين ؟ وأن رفيقتها « زيم » هي من صنع معمل باسم مولوتوف ؟ إلاّ أن لهذه النزعة دلالتها . وهي أن القوم باتوا يميلون إلى السرعة في كلّ شيء ، وإلى اختصار الطرق حيثما أمكنهم الاختصار . وعهدي بهم ، قبل نصف قرن ، أنّهم كانوا يميلون إلى التسويف والمماطلة ، وإلى اللّف والدوران .

ودلالة أخرى على حيويّة اللغة الروسيّة الحديثة تجدها في سرعة اقتباسها لمئات المفردات من اللغات الأجنبيّة . فهي لا تستنكف ، إذا أعوزتها كلمة في دنيا العلوم النظريّة والتطبيقية ، أو في السياسة والفلسفة ، أو في الفنّ والأدب ،

من أن تأخذ تلك الكلمة في أيّ لغة وجدتها . وما عليها إلاّ أن تعطيها صيغة روسيّة ليسهل تصريفها حسب القواعد المرعيّة حتّى تصبح وكأنّها روسيّة . والكثير من هذه المفردات المستعارة قد ألفه المثقّفون الروس إلى حد أنّك لو قلت لهم إنّه ليس من أصل سلافي ، وإنّه دخيل على لغتهم ، لأخذتهم الدهشة . ثمّ لسفّهوك .

من براغ إلى موسكو – من الصباح حتّى المساء – غيوم تتلبّد حيناً وحيناً تتلاشى ، فتنكشف لك عن سهول فسيحة ، وغابات كثيفة ، وعن بحيرات وأنهار ، وعن مدن وقرى تباعدت بينها المسافات . إنّها زاوية صغيرة من الدنيا الّتي يدعونها شيوعيّة . ولكنّك ، إذ تنظر إليها من الجوّ ، لا تجد أيّ فارق بينها وبين دنيا إلى الغرب منها . فلا الغيوم مطرزة بالمطارق والمناجل ، ولا الأنهر والبحيرات والغابات والسهول الّتي من تحتها تشعّ بالنجمات الحمر . ومن الأكيد أنّك لو دخلت مدنها ودساكرها ومزارعها لما وجدت فيها غير بشر مثلك يسعون وراء رزقهم ؛ ويحزنون ويفرحون ، ويتزاوجون ويتناسلون ، ويمرضون ويموتون مثلما يفعل النّاس في كلّ مكان . وإذ ذاك فما شأنك معهم إذا هم فعلوا ذلك باسم الماركسيّة أو اللينينيّة وفعلته أنت باسم الديموقراطيّة أو بعلزبوب؟ ولعلّ هذه المزرعة الحقيرة الّتي تبصرها الآن في حضن تلك

الغابة كانت مسقطاً لرأس كاتب أو موسيقار أو عالم انتفعتَ ولا تزال تنتفع أنت وآلاف غيرك بمواهبه . فكيف تكرهها وتسعى إلى تدميرها لا لسبب إلاّ لأنّها اليوم في أرض « شيوعيّة » ؟

* * *

تغيّرت موسكو – وتغيّرت كثيراً ! حتّى إن من عرفها مثلي منذ ستّ وأربعين سنة يكاد لا يعرفها اليوم . بل إن من عرفها في خلال الحرب وبُعَيدها يكاد لا يعرفها الآن . فهذه الشوارع الرحبة التي أُطلّ عليها من نافذتي في الدور الثاني عشر من فندق « لينينغراد سكايا » ، والتي يبلغ عرض بعضها ستّين متراً ؛ وهذه البنايات المتراصّة عن جوانبها ؛ وتلك القباب على الأفق التي تُطاول السماء ؛ وهذه النظافة الخارقة ، البادية على صفحات أرصفتها وجادّاتها ؛ وهذا الاتزان والهدوء في حركاتها – فلا صراخ باعة ، ولا ضجيج زمامير ، ولا صخب سكارى ومعربدين ، ولا وقع حوافر وقصف سياط ، – كلّ ذلك لممّا يثير دهشة رجل مثلي عرف في السابق ميل الشعب الروسي إلى الصخب والضجّة . لقد تعلّم القوم حبّ النظام والنظافة ، وتعلّموا أن يعملوا في هدوء واتزان ، وأن ينظروا حتّى إلى شوارعهم كما لو كانت جزءاً من مساكنهم . فهي ملك الجميع . وعلى كلّ واحدٍ منهم أن يصونها من

الأذى والقذارة كما يصون جسده[1] .

نعم . إنّني في موسكو حيث الكرملين الذي زرته من زمان، والذي بات اليوم كعبة الشيوعيّة – فيه ترسم خططها ، ومنه تنطلق دعاواتها ، وإليه تؤول جميع مشكلاتها . فكأنّه، بالنسبة إلى الشيوعيّة ، الفاتيكان بالنسبة إلى الكثلكة ، أو الأزهر بالنسبة إلى الإسلام ، أو مقرّ الدلايلاما بالنسبة إلى البوذية في التيبت .

وأيّ عجَب في ذلك ؟ أوَليست الشيوعيّة ديناً أرضيّاً ؟ فعلامَ لا يكون لها مرجع ترجع إليه في تفسير عقائدها ، وتطبيق طقوسها ؟ وهل يمكن أن يكون ذلك المرجع غير البلد الذي كان أوّل من اعتنق العقيدة ، وغير الحزب الذي قام على تطبيقها في ذلك البلد ؟ وإذن فلماذا الضجّة كلّما قام في أيّ بلد حزب شيوعي وتلقّى توجيهاته من موسكو ؟ إنّه لأمر جدّ طبيعيّ أن يعود أبناءُ الدين الواحد إلى المصدر الذي منه انطلق ذلك الدين . وإنّه لمن الغباوة أن تتوقّع منهم غير ذلك ما داموا مخلصين لعقيدتهم . فالدين لا يكون ديناً إلاّ إذا كان قابلاً للانتشار في كلّ مكان . وإذ ذاك فمهمّة القائمين به هي أن يوسّعوا له في الأرض ما أمكنهم التوسيع . وإلاّ كانوا لدينهم خائنين وبمهمّتهم مقصّرين .

---

[1] أقول ذلك غير ناس محطة للسكة الحديد بين كييف وبولتافا كانت التجهيزات الصحية فيها ، وبالأخص المراحيض ، في حالة من القذارة لا توصف .

أمّا أن العقيدة قد تتكيّف بذهنيّة المعتقد وظروفه ، وبطبيعة البلد الذي يعتنقها ، فليس في ذلك أقلّ غرابة . ويبدو أن الشيوعيّين يحسبون لهذا الأمر حسابه ، ويخيفهم أن يؤدّي إلى تصدّع في صفوفهم . ولو أن الرأسماليّين حسبوا له أيضاً حسابه لخفّفوا من ذعرهم ومن صليبيتهم ضدّ الشيوعية ، ولقالوا في قرارة نفوسهم ما قاله غمالائيل ، معلّم الرسول بولس ، لليهود عندما جاؤوه يشكون أمر « البدعة » الجديدة — المسيحيّة — ويبدون تخوّفهم منها على دينهم وطقوسهم :

« إذا كان ما يقول به هؤلاء القوم من الله فعبثاً تحاربونه . وإذا كان من النّاس فسينهار من تلقائه . »

أوَليس أن الذين يحاربون الشيوعيّة يؤمنون — أو يدّعون الإيمان — بالله ؟ فما بالهم يخشون على الله من أن يغلبه الشيطان ؟ أم أنّهم أقوى من الله ، وأدرى منه بتدبير عباده ؟ أم أنّهم يحسبون أنفسهم مكلّفين من قِبَل الله بتنفيذ مشيئته على الأرض ، ولذلك يعملون جاهدين على إفناء النّاس وتدمير كلّ ما شادوه على الأرض ؟

كان أوّل نهاراتي في موسكو نهار أحد . واتّفق أنّه النهار الذي يُفتتح فيه المهرجان الرياضي الكبير حيث تتبارى جميع الجمهوريات والمقاطعات السوفيتيّة في الملعب الجديد القائم على نهر « موسكفا » في طرف من أطراف العاصمة . وهو ملعب

يتّسع لمئة ألف ناظر وأكثر . والفضل الأكبر في تشييده ، حسبما أُخبرت ، يعود إلى مؤسّسة « الشبيبة الشيوعيّة » . والعمل في البنايات العديدة القائمة من حواليه ، والتي يخدم كلٌّ منها غرضاً من أغراض الرياضة البدنيّة ، لمّا ينتهِ بعد . ولست أشكّ في أنّه بعد أن ينتهي سيبرز إلى الوجود أضخم وأجمل « مدينة » رياضيّة في العالم . هكذا تبيّن لي من مشاهداتي العينيّة . وهكذا أكّد لي باعتزاز رفيقي «شرباكوف» وكان أحد اثنين استقبلاني أمس في المطار من قِبَل اتحاد الكتّاب السوفيتيّين . أمّا الثاني — « مدفيديف » — فكان سكرتير الاتحاد في علاقاته مع الخارج . وقد اتّفقنا ، ونحن على العشاء ، أن لا يفوتني أوّل يوم من أيّام « السبارتاكيادا » .

وجاء وقت العرض . وازدحمت مقاعد الملعب الكبير بآلاف النّاس فما كنت ترى غير صفوف مستديرة منهم تتقاعس عن صفوف إذ هي تمعن في الصعود . وبين الحضور أعضاء السلك الدبلوماسي ووفود كثيرة من الخارج . وبغتة جرت حركة في جميع الصفوف . فالتفت إليّ مرافقي وقال بابتسامة عريضة وعينين تفيضان اعتزازاً : « البريزيديوم ! » وانتصبت الجماهير واقفة . ودوّى التصفيق ، وصدحت الموسيقى العسكريّة . إن هذا الشعب يحبّ قادته حبّاً صافياً — هؤلاء القادة الذين في أيديهم مقدرات أكبر بلاد الأرض

وأغناها ، بل ومقدرات العالم إلى حدّ بعيد .

ثمّ ابتدأ العرض ، فكان في منتهى الروعة ، وعلى الأخص في تلك الحركات الرشيقة التي كان الشبّان والشابّات الرياضيون يقومون بها على أرض الملعب المكسوّة بالعشب الأخضر ، وفي الرسوم العجيبة التي كانوا يخلقونها من أجسادهم وممّا على أجسادهم من ثياب فيها من سائر الألوان التي تخطر لك في بال . فبينا تراهم قد تفرّقوا كوماً كوماً والتصقوا بالأرض إذا بك ترى كلّ كومة تتفتّح عن شتّى الأزاهير ما بين زنبق وورد وياسمين وغير ذلك ، وكلّها بشري . أو إذا بك ، بعد لحظة ، تراهم قد انتشروا في أرض الملعب فبدوا لعينيك بحراً متلاطم الأمواج ، أو حقلاً من السنابل المتمايلة يميناً ويساراً مع النسيم ، أو أشياء أغرب من ذلك وأعجب .

إن هؤلاء الروس لقوم عرفوا كيف يستخرجون من الجسم البشري أقصى ما فيه من ليونة وسحر. ولا نفاد لصبرهم . ولا حدود لفطنتهم وعبقريتهم عندما يدفعهم شوقهم إلى استنباط كلّ طريف وجديد من هذا القبيل . يشهد على ذلك « الباليه » الذي ما استطاع أيّ شعب أن يجاريهم فيه حتّى اليوم . وكان يُخشى من ثورة « البروليتاريا » أن تقضي على هذه العبقريّة ، أو أن تحدّ من انطلاقها . إلاّ أنّها ، على العكس ، قد برهنت عن مقدرة خارقة في تنشيط الفنون بأنواعها —

والباليه والمسرح والموسيقى على الأخص .

لقد أدركت الثورة منذ البداية أنّها لن تقوم بمحراث الفلاّح ، ومطرقة العامل ، ومختبر العالم ، وبندقيّة الجندي لا أكثر . بل لا بدّ لها ، إلى جانب ذلك ، من ريشة الرسّام ، وإزميل المثّال ، ووتر الموسيقي ، ومسرح الممثل ، وساق الراقص ، وقلم الشاعر والكاتب . ولذلك ترى جميع هؤلاء معزّزين في الاتحاد السوفيتي ومكرّمين . فلكلّ فئة منهم نقابتها أو اتحادها . ولأنّني اتّصلت بالكتّاب أكثر من اتصالي بأبناء الفنون الباقية فباستطاعتي أن أُحدّثك عنهم بشيء من الإسهاب .

هناك الاتحاد الرئيسي ومركزه موسكو . وهذا الاتحاد يتصل به اتحاد مماثل في كلّ جمهوريّة من الجمهوريّات السوفيتيّة . وهذه تتفرّع عنها اتحادات ثانويّة في الملحقات . والدولة هي المغذّي الأهم لصناديق هذه الاتحادات . فقد قال لي السكرتير الأوّل للاتحاد المركزي في موسكو ــ الكاتب « ميخالكوف » ــ إن صندوقهم « يعجّ » بالمال . فالدولة ، بوصفها الناشر الأوحد ، تقتطع من نصيبها في الأرباح نسبة مئويّة محدودة وتدفعها إلى الاتحاد . وهذه النسبة المئويّة تفيض عن نفقات الاتحاد برغم أن هذه النفقات تبلغ أرقاماً كبيرة في السنة . وليس أقلّها الإنفاق على الوفود التي يدعوها الاتحاد

لزيارة البلاد . فهو يتكفّل بتكاليف هذه الوفود منذ أن تغادر بلادها وحتّى تعود إليها .

وفي الاتحاد لجان عملها النظر في الكتب المعروضة للنشر ، سواء أجاءت هذه الكتب من كتّاب ناشئين أم من كتّاب لهم شهرتهم . إلاّ أن الكتّاب المشهورين يتقاضون من مؤلفاتهم نسبة أعلى من تلك التي يتقاضاها الناشئون . وذلك تدبير قد لا يكون منصفاً للناشئين . وهنالك من يطالب بالمساواة التامّة بين الكتّاب مهما تكن شهرتهم . وعلى رأس هؤلاء الكاتب السوفيتي الأشهر « شولوخوف » صاحب رواية « الدون الهادىء » . أمّا الذين تُقبل مؤلفاتهم للنشر فبشّرهم بالثروة والرفاهية إذا لاقت مؤلفاتهم رواجاً . إذ انّه سيُطبع منها بعشرات ألوف النسخ ، وقد تبلغ مئات الألوف . فميخالكوف – وهو يكتب للصغار ولا يزال دون الخمسين – يعدُّ نفسه من الأغنياء ، ولا يخفي ذلك . إذ قد طُبع من مؤلفاته حتّى اليوم سبعة ملايين نسخة ! ولا تسلني ماذا كان موقفي معه عندما سألني عن عدد النسخ التي طُبعت وبيعت حتّى الآن من مؤلفاتي العربيّة . . .

إلى جانب هذا الاهتمام البالغ بالكتاب الحديث والكاتب الحي ترى الدولة تنفق الأموال الطائلة على نشر آثار الأدباء الذين ارتحلوا عن هذه الفانية ، وعلى إقامة المتاحف للمشاهير

منهم . وبعض هذه المتاحف يشغل بنايات كبيرة من دورين وثلاثة أدوار . وقد عُرضت في كلّ منها آثار هذا الكاتب أو ذاك من المهد إلى اللّحد ، وبطريقة فنيّة ، مدروسة في أدقّ تفاصيلها وتعاقب أحداثها ، تكاد تغنيك عن مطالعة سيرة الكاتب . وقد أُتيح لي أن أزور من هذه المتاحف متحف تولستوي في « ياسنياپوليانا » ، وبوشكين في « لينينغراد » ، ودوستويفسكي وغوركي في « موسكو » ، وشفتشينكو في « كييف » ، وكوتليارفسكي وكورولنكو في « پولتاڤا » . وهناك متاحف كثيرة لمشاهير الرسّامين والموسيقيّين والعلماء .

وما دمت في الحديث عن الكتّاب والكتاب فلا بدّ من كلمة عابرة عن إقبال السوفيتيّين العجيب على المطالعة . إنّهم يطالعون بنهم ، كبارهم وصغارهم ، رجالهم ونساؤهم ، عمّالهم وفلاّحوهم ومثقّفوهم . حتّى إن الدولة لا تستطيع تلبية هذه الرغبة بالسرعة اللازمة . فما إن تعلن عن عزمها على إصدار طبعة من كتاب له شهرته حتّى تنهال عليها الاكتتابات من كلّ أقطار البلاد . ولقد قال لي مرافقي إنّه ما برح منذ أربع سنوات ينتظر الحصول على نسخة اكتتب بها من كتاب بعينه ، وإنّه ، من هذا القبيل ، واحد من ألوف .

لن أُحدّثك عن الآثار البارزة في موسكو : عن جامعتها ، وعن دار النقابات ، وعن المترو ، وعن المسارح ، وعن

مكتبة لينين ، وعن متحف ترتياكوف للفن الروسي ، ولا عن الكرملين وكنائسه المذهّبة القباب ، ومتحف الأسلحة القديمة والتحف الملكيّة فيه ، وعن الساحة الحمراء ، وعن مدفن لينين وستالين ، والخشوع الذي تشهده على وجوه آلاف النّاس من السيّاح وأبناء البلاد إذ هم ينحدرون إليه أمتاراً تحت الأرض على سلالم من المرمر الأسود ، وإذ هم يدورون في أسفله حول القفص الزجاجي المسجّى في داخله جثمانا لينين وستالين المحنّطان . فهذه كلّها أشياء باتت أشهر من أن يُكتب عنها . وأُحدثك عن أمور قد تبدو تافهة في ذاتها ولكنّها ليست بدون مغزى .

لقد استرعى انتباهي في الفترة القصيرة التي مكثتها في موسكو ، وفي الجولة التي قمت بها في مدن أُخرى ، انعدام الخلاعة في الشوارع والفنادق والحدائق العامّة ، وفي المسرح والسينما والصحافة على أنواعها . ثمّ انعدام التبرّج ما بين النساء ، حتى الميسورات منهنّ . أمّا الصحافة اليوميّة منها والدوريّة ، فتصدر ولا أثر فيها للرسوم والأخبار التي تستهدف إثارة الشهوة الجنسيّة . مثلما لا أثر فيها للفضائح والإعلانات من أيّ نوع . ومعروف أن الإعلان في الصحف الرأسماليّة قد بات منها بمثابة خبز الحياة ، لا فرق أكان عن دواء يشفي سائر الأمراض ، أو عن مشروع يجلب الملايين في أيّام أو

أسابيع ، أو عن سيارة هي سيدة السيارات متانة وأناقة ورفاهية، أو عن مرشح للنيابة يكفل لناخبيه الحرّيّة والبحبوحة والسعادة ، أو عن مساحيق سحريّة تجعل من أيّ أنثى بشريّة ، وإن تكن آية في الدمامة والبشاعة ، منافسة لفينوس . فأنت لا تقرأ في الصحف السوفيتيّة التي تصدر في العاصمة والملحقات غير أخبار عن الأعمال البنّاءة التي يقوم بها كبار السوفيتيّين وصغارهم في مختلف جمهورياتهم ومناطقهم ، وفي شتّى مرافق حياتهم . وتقرأ إلى جانب ذلك أخباراً عالميّة ، ودعاوات مركّزة ضد أعداء البلاد والنظام الاشتراكي . ولا يندر أن تقع على انتقادات جارحة يوجهها أحد القرّاء إلى مدير لا يحسن الإدارة ، أو موظف لا يقوم بوظيفته .

واسترعى انتباهي كذلك انعدام التهالك على المال بأيّ ثمن ومن أيّما مصدر جاء . فلا بورصة ، ولا احتكارات ، ولا مضاربة بأثمان الأطيان ، ولا رهون ، ولا ربا ، ولا ماركات مسجّلة ، ولا مناجم ذهب أو فضّة أو ألماس ، ولا آبار بترول يكتشفها الأفراد والشركات ويستثمرونها لتضخيم ثرواتهم على حساب غيرهم . ولا عجب ، فالإنسان السوفيتي يعرف أن المال لن يأتيه إلاّ من كدّ ساعده ودماغه . أمّا استدرار المال بالمال عن طريق الرهون والأسهم والديون . وأمّا استثمار خيرات الأرض التي هي إرث مشترك للجميع

بطريقة تغني القليل من النّاس وتحرم الكثير فذلك في نظره جريمة اجتماعيّة . وهو مهما بلغ دخله من كدّ ساعده ودماغه، ومهما بالغ في التوفير والتقتير ، لن يجمع في حياته ثروة تداني الراتب السنوي لبعض الرؤساء والمديرين في بعض الشركات الرأسمالية الكبيرة . فهنالك من راتبهم السنوي يبلغ المليون من الدولارات . فكيف إذا أضفت إليه ما يربحه المليون من الفوائد في السنة ؟

ثمّ استرعى انتباهي قلّة السكارى والمعربدين . وعهدي بالروس يتعمّدون بالفودكا قبل أن يتعمّدوا بالماء والروح القدس .

وممّا أدهشني حقّاً إقبال المواطنين السوفيتيّين على متاحفهم بأنواعها . وعلى الأخص تلك التي كانت إلى عهد قريب قصوراً للأباطرة لا يدخلها إلاّ النخبة من الأشراف والدبلوماسيّين . ففي الكرملين ، وفي متحف « ترتياكوف » بموسكو ؛ وفي القصر الشتوي ، و « الارميتاج » بلينينغراد ؛ وفي قصور « بترهوف » على الخليج الفنلندي كنت أراهم يتوافدون بالألوف وعشرات الألوف . فلا يلبثون أن ينقسموا إلى طوابير يتولى قيادة كلّ منها دليل يشرح لهم بشيء من الإسهاب معاني التحف الفنيّة والتاريخيّة المعروضة أمامهم . وكنت أراهم يصغون كلّ الإصغاء ، وأسمعهم يطرحون

الأسئلة من حين إلى حين . وكان من الصعب عليّ أن أميّز الفلاّح بينهم من العامل ، والعامل من المهندس والمحامي وغيرهما من المثقّفين .

لقد ضاعت الفوارق في روسيا إلى حدّ بعيد ، وكانت إلى عهد قريب بارزة الحدود ، قاسية المعالم . وبات أحقر فلاّح ينظر إلى البلاد وكلّ ما فيها كما لو كانت بأجمعها ملكه . وبات يرى نفسه مساوياً في الحقوق والكرامة لأكبر من فيها . كيف لا وهو لا يعفّر اليوم جبينه ، ولا يريق ماء وجهه أمام أيّ كان ؟ بل إن رئيس البلاد ، ورئيس وزرائها ، والسكرتير الأوّل للحزب المدبّر فيها ، وجميع مَن هم « فوق » ، ليسوا عنده أكثر من « توفاريشيّ » (رفاق) .

إذا كان في الكلمات من سحر فإن الثورة الشيوعيّة كانت أوّل مَن اهتدى إليه عندما ألغت جميع الألقاب المدنيّة واستعاضت عنها بكلمة « توفاريش » . فهل أبسط ، وأصدق ، وأنبل ، وأفعل في تقارب القلوب من أن تخاطب أيّ إنسان بقولك « يا رفيقي ! » ؟ إنّها الألماسة النقيّة في عقد العلائق البشريّة . أمّا « الجلالة » و « الفخامة » و « المعالي » و « العزّة » و « العطوفة » وما إليها فحجارة برّاقة ، زائفة ؛ وتحقير شائن للإنسانيّة في الإنسان . حتّى « موسيو » و « سِرْ » و « سنيور » و « سيّد » ، وإن بدت بريئة لأن الأذن ألفتها ، لا تخلو من

معاني السيّد والمسود ، والرفيع والوضيع . في حين أن « رفيق » تساوي كلّ المساواة بين المخاطِب والمخاطَب . وهل نحن في الواقع إلاّ رفاق في الجهاد – جهاد الإنسان ضدّ كلّ ما يجهله ، وكلّ ما يعرقل خطواته نحو المعرفة والحرّيّة ؟ وهل نحن إلاّ رفاق في طريق الحياة ؟

وظاهرة أُخرى استدعت اندهاشي . وهي ازدحام السوفيتيّين والسوفيتيات في بعض المخازن الكبيرة ازدحاماً ما شهدت له مثيلاً إلاّ في الولايات المتحدة أيّام مواسم الميلاد ورأس السنة . وكنت قرأت وسمعت عن النقص الفادح في مواد الاستهلاك في الاتحاد السوفيتي . وها هي عيني تكذب ما قرأت وما سمعت . فالرفوف في المخازن تنوء بالبضائع من شتى الأصناف – الرخيص منها والغالي ، والضروري والكمالي . والنّاس يتسابقون إلى الشراء ، وكأنّهم ينفقون عن سعة وغير مبالين . أو كأنّهم ما سمعوا قطّ بالحكمة القائلة : « القرش الأبيض لليوم الأسود » فلا يدّخرون شيئاً مِمّا يكسبون . وعلامَ يدّخرون والعمل مؤمّن لهم أبداً ، وكذلك المدارس والعناية الطبيّة ، والقوت والمأوى في حالة العجز عن العمل ؟

كذلك لا بدّ من الإشارة إلى التقدّم العظيم في الصناعة الذي أحرزته البلاد بقيادة الثورة في الأعوام الأربعين من

حياتها . وهي مدّة هدرت نصفها في الحروب والترميم والتعمير . فقبل نصف قرن كانت روسيا في مؤخرة الدول الأوروبيّة . ولعلّ الصناعة الوحيدة التي كانت تصدّر من نتاجها إلى الخارج كانت صناعة «الساموڤار» . أمّا في ما تبقّى فكانت عالة على أوروبّا ، حتى في إنتاج السلاح والمواد الحربيّة . ولصناعة هذه لم يكن عندها معمل ذو قيمة إلاّ معامل «بوتيلوف» . فما دخلت حرباً إلاّ انتشرت بجانها في أقطار أوروبّا وأميركا تبتاع ذخيرة حربيّة .

أمّا اليوم فالاتحاد السوفيتي ينتج ما يفيض عن حاجته من الأسلحة ، ومن أدوات البناء والزراعة والصناعة وغيرها . وهو يكفي ذاته بذاته من جميع الوجوه . وكلّ ما تراه فيه هو من نتاج معامله وأرضه . لقد كانت روسيا من أكبر الدول المستوردة فأصبحت من أكبر الدول المصدّرة . وفي ذلك ما فيه من العبرة لمن شاء أن يعتبر .

المـــدن التي زرتها

لم يكن بدّ من وضع برنامج للأسابيع الثّلاثة الّتي كان من المقرّر أن أقيمها في روسيا . وبعد التّشاور مع المسؤولين في اتحاد الكتّاب اتّفقنا على أن يكون البرنامج هكذا : لينينغراد – كييف – پولتاڤا – ستالينغراد – موسكو . وقد عيّنوا لي مرافقاً في هذه الرحلة غير مرافقي الأول . وهو شاب لطيف المظهر والمعشر ، عصبيّ المزاج ، سريع الخاطر . وأسمه « ساشا أوسفاتوف » . وكان لا بدّ لي من مرافق يهتمّ بأمر النقليّات والفنادق والاتصالات الضرورية مع بعض الأشخاص والهيئات . وكان « ساشا » عند حُسن ظني به . فما كدّرني بأقلّ هفوة أو كلمة أو حركة . بل كان كأنّه الساعة في ضبط الأوقات والمواعيد . ولم يطل أن عرف ذوقي في أمور الأكل والشرب . فكان يقوم عني بتنظيم قوائم الطّعام . وحيثما حللنا كان يوقّع الإيصالات عن تكاليفنا باسم اتحاد الكتّاب وباسم « الوفد اللّبناني » . وهاتان الكلمتان الأخيرتان كانتا توضعان

في إطار على المائدة التي نختارها في مطاعم الفنادق .

لينينغراد :

أسّسها ، كما هو معروف ، بطرس الكبير على شاطىء البلطيق لتكون لروسيا « نافذة إلى الغرب » وأطلق عليها اسم شفيعه القديس بطرس فكانت « سانكت بتربورج » (الجيم مصرية) أي مدينة القديس بطرس . ثمّ اختُصر الاسم فبات « بتربورج » . وهذا كذلك اختصره الروس في مكالماتهم فجعلوه « بيتر » . ولكنّ « بورج » (مدينة) كانت جرمانية الأصل . لذلك عندما اندلعت نيران الحرب العالميّة الأولى ضدّ الألمان استبدل الروس بكلمة « بورج » كلمة « غراد » السلافية. فأصبحت المدينة « بتروغراد » . ثم جاءت الثورة البلشفية بقيادة لينين . وكانت بتروغراد نقطة انطلاقها . فرأى الثوّار أن زعيم الثورة ، وأبا الدولة الجديدة ، أحقّ بأن تُنسب إليه المدينة التي كانت مهد الثورة من بطرس الكبير الذي أسّسها . وهكذا أصبح اسمها « لينينغراد » — أي مدينة لينين .

ولأنّني لا أريد لهذا الكتاب أن يطول ويتضخّم إلى أبعد من الغاية التي وُضع لأجلها ، فلن أُحدّثك عن الخراب الهائل الذي حلّ بلينينغراد إبّان حصارها الطويل في الحرب الأخيرة ، ولا عن بطولة سكانها الخارقة ، ولا عن قصورها ، ومتاحفها ،

وشوارعها ، وحدائقها ، والتماثيل القائمة فيها ، ولا عن السرعة المدهشة التي جرى ويجري بها تعميرها وترميمها . وأحدّثك عن متحف الاتنوغرافيا والانثروبولوجيا الذي أسّسه ذلك القيصر العبقري والبعيد النظر – بطرس الكبير . فهو متحف ما اتفق لي أن رأيت مثله من قبل . فقد عُرضت فيه جميع أصناف البشر منذ أقدم العصور ، وعُرضت بأزيائها وبيئاتها . حتى ليسهل عليك في خلال ساعة أو ساعتين أن تمرّ بسائر أدوار التطوّر البشري .

ولعلّ ما يستوقفك في المتحف أكثر من سواه ذلك الجناح الذي عُرضت فيه نماذج من الخلائق البشرية التي حادت الطبيعة في تكوينها عن سراطها السويّ . فهذا طفل بغير يدين ، وآخر بغير رجلين . وهناك ثالث بعين واحدة وسط جبهته ، وتوأمان متلاصقان بثلاث عيون – اثنتان إلى الجانبين وواحدة في الوسط ، وكثير غير ذلك مما يبعث الحيرة في الفكر والتقزّز في النفس . وهذه المعروضات جميعها محفوظة في آنية زجاجية وفي محلول كيميائي يقيها التهرّؤ والانحلال . وأنت إذ تمرّ بها تسأل نفسك : ألعلّها « أخطاء مطبعية » لا أكثر ؟ أم لعلّ الطبيعة ، عندما فعلت ذلك ، كانت في حالة سكر ، أو في حالة عبث وتهريج ؟ أم تراها فعلته عن سابق قصد وتصميم ، فكان انحرافها عن نظامها بعضاً من نظامها ؟ وإذ ذاك فكيف لنا أن نتوصل إلى

فهمْ ذلك النّظام ؟ ومَنذا يستطيع أن يكفل أن الشذوذ عن النظام لن يصبح فوضى يوماً ما ، فنغدو وكأنّنا وجميع ما درسناه وحفظناه وبنينا حياتنا عليه ريشة في مهبّ الريح ؟ إلاّ أنّك تعود فتقول إن النظام الذي ينطوي عليه كيانك الجسدي والعقلي والروحي نظام محكم إلى حدّ أن لا يقبل الشذوذ . وإن ما تحسبه شذوذاً عنه ليس غير بعض منه . فقد لا يكون أكثر من قصاص للذين شذّوا عنه واستهانوا به . أمّا كيف شذّوا ، ومتى ، – فعليك لا على النظام أن تبحث عنه وتفهمه .

شاقني ، وأنا في لينينغراد ، أن أستعيد ذكريات شبابي في روسيا فأحضر خدمة القدّاس وأسمع جوقة كنيسة ترنم الترانيم الدينية التي عرفتها من زمان . وسألت عن أحسن جوقة فقيل لي إنها في كاتدرائية القدّيس نيقولاوس . وانطلقت برفقة « ساشا » إلى الكنيسة . فإذا بها بناء ضخم من دورين ، وإذا بجدرانها الخارجية وقبابها المذهّبة لا تزال في دور الترميم . وصعدنا إلى الدّور الثاني حيث كانت تجري خدمة القداس فوجدنا نحو أربعة آلاف من المصلّين والمصلّيات واقفين كتفاً إلى كتف في بهو الكنيسة الفسيح وكأنّهم إنسان واحد – لا همسة ، ولا تنحنحة ، ولا احتكاك حذاء بالأرض . وسمعنا الجوقة تنطلق أصواتها من الطرف الآخر للبهو حيث المذبح ولفيف كبير من رجال الدين على رأسهم مطران المدينة .

لقد كانت الجوقة مثلما توقعت – بل فوق ما توقعت . وأحسستني أنتقل خمسين عاماً إلى الوراء . فزحمتني الذكريات ، وسيطر عليّ الجو . وأخذتُ أشعر كما لو أنّ أصواتاً بعيدة جدّاً ، وعذبة جدّاً تخاطبني . فتنتشر الطمأنينة في جوانب نفسي . ومما زاد في تأثري أن العجوز الواقفة أمامي ، وقد لفّت شعرها بمنديل بسيط . كانت لا تنفكّ ترسم علامة الصّليب ، وبين الفينة والفينة تركع فلا تنهض إلاّ من بعد أن تلامس جبهتها الأرض مراراً عدّة . لقد كانت تصلي بحرارة . ولعلّ صلاتها كانت عن أرواح زوجها وبنيها الذين هلكوا في الحرب ، أو من أجل صحّتهم وسلامتهم إذا كانوا لا يزالون أحياء . ومن يدري لمن ولماذا يصلي المصلون ؟ فما دريت ، وأنا أرقب تلك الفلاحة السوفيتية ، إلاّ والدمعة تكاد تطفر من عيني . وإذ التفتّ مفتّشاً عن « ساشا » ولم أجده انسحبت بهدوء وانحدرت إلى ساحة الكنيسة حيث وجدت رفيقي في انتظاري .

« ألا يؤذيك ، مثلما يؤذيني ، هذا التّدجيل – هذه الشّعوذات – وهـذه التّجارة بالدّين ؟ بيع الشموع . والأيقونات ، وابتزاز الأموال من البسطاء ؟ »

قال رفيقي ذلك بلهجة عصبية ، والامتعاض بادٍ على وجهه وحركاته . فلم أُجبه بشيء .

انتهزت فرصة وجودي في لينينغراد لأقوم بزيارة لأرملة المستعرب الروسي إيغناتي (اغناطيوس) كراتشكوفسكي الذي كان موته خسارة للعرب أكبر منها للروس . وكانت بيني وبينه مراسلات . ولقد ذكرني غير مرّة في مؤلّفاته ، وعلى الأخصّ في كتابه «مع المخطوطات العربيّة» حيث كرّس لي فصلاً بكامله . وأذكر أنه بعث إليّ منذ أعوام بأحد مؤلّفاته الروسية وعليه هذه التقدمة بخطّ عربي صريح : «من غنطوس الروسي إلى ميشا العربي» . وما إن بحث برغبتي لرفيقي «ساشا» حتّى غاب قليلاً ثم عاد وقد ضرب لي موعداً مع الأرملة في مصيفها الباعد قرابة أربعين كيلومتراً عن لينينغراد والقائم في بلدة يدعونها «قرية الأكاديميين» . وأمثال هذه القرية كثيرة في الاتحاد السوفيتي . فهنالك «قرى» أو «بيوت راحة» لكلّ أصناف المثقفين والعمّال يلجأون إليها في الصيف أو في فترات الاستجمام والعطلة عن العمل .

ما كادت السيارة تتوقف بنا أمام باب الحديقة حتّى خرجت للقائنا السيدة كراتشكوفسكي وأسرعت إلى باب الحديقة ففتحته وهي ترحب بنا الترحيب العربي المألوف : «أهلاً وسهلاً !» ولأن الروسية تفتقر إلى حرف الهاء فقد جاء ترحيبها هكذا : «أخلاً وسخلاً !» فكان هذا التحريف الطفيف ، والبشاشة الصادقة التي رافقته ، واليد اللطيفة التي

امتدّت لمصافحتي كافية لتجعلني أشعر كما لو كنت في بلدتي وبين أهلي ، وأن السيدة كراتشكوفسكي كانت جدّ ممتنة لهذه الزيارة يقوم بها كاتب من الشرق العربي البعيد إجلالاً لذكر زوجها الكبير .

تحدّثنا نحو الساعتين في شتّى الأمور . إلا أن الجانب الأكبر من حديثنا كان ، بالطبع ، عن الرجل الذي أحبّ العرب ولغتهم وآدابهم إلى حدّ أن كرّس حياته لهم . ثم عن الأهوال التي عاشها مع زوجته في عاصمة القياصرة إبّان حصارها الطويل والمرير على أيدي الغزاة النازيين . ولم يكن بدّ من الشاي والحلوى . فأخذنا منهما نصيباً وافراً ولذيذاً . وقبل الانصراف صعدت بنا مضيفتنا إلى الدور الثاني من البيت الخشبي حيث كان مكتب رفيق حياتها . وقد تركت كل ما فيه على ما كان عليه في حياة زوجها . وأبت إلا أن أجلس في الكرسي الذي كان يجلس فيه ، وأن أسطر لها بضع كلمات للذكرى وبالقلم الذي كان قلمه . وعند الانصراف قدّمت إليّ رسمه مع مجلّدين صدرا حديثاً من المختارات من مؤلّفاته التي أخذت تنشرها تباعاً بعد وفاته أكاديمية العلوم ، وكان من أبرز أعضائها .

ودّعتُ ربّة البيت التي تبدو عليها جميع أمارات الأريستوقراطية من غير أن أسمع أو ألمح منها ما يمكن أن يُشتمّ منه أقلّ شكوى أو تأفّف أو عدم رضى من حالها أو مما

حواليها . وألقيت آخر نظرة على ذلك البيت المتواضع ، وغابة الشوح التي تحتضنه ، فقلت في نفسي : من يصدّق أنّ الذين عُلّقت قصائدهم على باب الكعبة ، والمتنبي والمعري وابن المعتز والوأواء الدمشقي ، وطائفة من أُدباء العرب المحدثين – وفي جملتهم أنا – قد عاشوا في هذا البيت وضمن هذه الغابة ؟ حقّاً إن عالمنا لعالم صغير – صغير !

كييف :

هي عاصمة جمهورية أوكرايينا السوفيتية . والعاصمة الأولى لروسيا أيام الأمير فلاديمير العظيم (١٠١٥ +) الذي كان أوّل من تنصر من الروس فتنصرت معه البلاد بأسرها . وقد عرفتها لأول مرة في العام ١٩٠٨ فألفيتها تزخر بالحياة والحركة مثلما يزخر « الدنيبر » الذي تقوم على ضفته بالمياه . وعرفت أن الجيوش الألمانية دخلتها بالنار وخرجت منها بالنار في الحرب الأخيرة فتركتها أطلالاً خرساء ، صمّاء . ولشدّ ما أذهلني ، عندما دخلتها ، أن أرى خرابها تحوّل عماراً . فشوارع فسيحة ، نظيفة ، وعن جوانبها بنايات من طراز حديث ، والحركة فيها لا تهدأ ليل نهار . وليس ما يذكرك بالدمار الفظيع الذي حلّ بها إلاّ بعض جدران من بنايات قديمة ما استطاعت المدافع والطائرات أن تدكّها إلى الحضيض .

استقبلنا في المطار أحد أعضاء اتحاد الكتّاب الأوكرانيين واسمه « نوڤيتسكي » . وهو شاعر مرموق عندهم ورجل متحمّس لبلاده ونظامها الجديد ، ولقضية الأدب والسلم . وبعد وصولنا بساعات لبّيت دعوة « الاتحاد » إلى حفلة تعارف في دارهم ، وفي جوّ أدبي بحت تحدّثنا طويلاً عن الأدب الأوكرايني والأدب العربيّ . وأظهر القوم تشوّقاً كبيراً إلى الاطّلاع على ما عندنا من أدب وإلى إطلاعنا على ما عندهم . وسألوني كيف السبيل إلى ذلك ؟ فقلت هو تبادل الطلاّب حتّى يكون لنا عرب يتقنون الأوكرانية ، ويكون لكم أوكرانيون يتقنون العربية . فنالت الفكرة استحسانهم ووعدوا بالسعي إلى تحقيقها .

حدّثني « نوڤيتسكي » غير مرّة ، وبالكثير من الإعجاب ، عن المستعرب الأوكرايني « كريمسكي » الذي عاش مدّةً في بيروت قُبَيل نهاية القرن الماضي ، وعن القصائد الّتي أوحتها إليه إقامته في لبنان . وقرأ لي بعضها ، وإذا به يتغنّى بصنين — جبلي المحبوب — في واحدة منها . فقلت : الله ، الله ! من قال يا صنين إنّني سألقاك في كييف ؟ وهذا دليل آخر على أن عالمنا عالم صغير — صغير . ولكنه كبير — كبير لولا أنّنا نزرع أرجاءه شحناء وبغضاء ، وتنابذاً وتقاطعاً بدلاً من السلام والوئام والتعاون والتواصل .

من الآثار الّتي زرتها في كييف كاتدرائية القديسة صوفيا .

وهي تقوم على رابية تُشرف على المدينة ويعود تاريخها إلى أول عهد روسيا بالنصرانية . ولعلّ الذين بنوها أرادوها أن تكون شبيهة بسميّتها في القسطنطينية . فعلى جدرانها الكثير من الرسوم البيزنطية البديعة المصنوعة من الفسيفساء . أمّا قبّتها فمزيّنة برسوم زيتية من صنع أحد مشاهير الرسامين الروس . وأحد تلك الرسوم وأبرزها يمثل العذراء مع الطفل . وقد قيل لي إن طول العذراء في الرسم يبلغ أربعة أمتار . لكنه ، من الأرض ، يبدو بحجم طبيعي . واتفقت زيارتنا للكنيسة في وقت كانت تقام فيه خدمة حافلة لذكرى القديس « مكابي » . وكان عدد المصلين يربي على ٣٠٠٠ ، وقد جرت العادة في هذا العيد أن يحملوا الأزهار . لذلك بدت الكنيسة وكأنها معرض لأصناف الأزاهر .

شاقني كذلك ، وأنا في كييف ، أن أزور كولخوزاً من الكولخوزات التي في جوارها . فيسّر لي ذلك « نوفيتسكي » بغير عناء . وهكذا مضينا إلى « كولخوز لينين » حيث استقبلنا مديره بالترحاب وراح يشرح لي الأدوار التي مرّ بها الكولخوز في تطوره قبل الحرب وبعدها ، وكيف يوزّع العمل فيه ، وكيف يكافأ بطريقة تكفل للنشيط معيشة محترمة ولا تترك الكسول عالة على غيره . ومما قاله لي المدير إن كولخوزهم كان ، حتى سنوات قليلة ، من الكولخوزات الفقيرة ، لأن تربته يغلب فيها الرمل . والرمل لا يصلح للحبوب والبقول ولا

للمراعي . وزارهم ذات يوم الرفيق خروشّوف ، فشكوا له أمرهم . فما كان منه إلاّ أن قادهم إلى مستنقعات كبيرة ضمن حدود كولخوزهم وقال : « هاكم تربة صالحة ! » فظنوه يمزح . ولكنه أفهمهم أنّه لم يكن في موقف مزح . فقالوا : « ومَن نحن لنعاند الطبيعة ؟ إنها أوجدت هذه المستنقعات ولا نستطيع محاربتها . » فأجابهم : « ما لا تستطيعونه أنتم يستطيعه الاتحاد السوفيتي . » وكان أن جُفّفت المستنقعات بسرعة أدهشت الكولخوزيين وجعلت مزرعتهم في طليعة المزارع . لها مدرستها ، ومستوصفها ، وملعبها ، وسينماها ، وناديها حيث يوجد جهاز للتلفزيون .

دخلت بيت أحد الكولخوزيين ، وكان ملكاً لصاحبه — وأكثر المزارعين هناك يملكون بيوتهم — فألفيته مبنيّاً من الآجرّ ، ومؤلّفاً من غرفتين للنوم ، وواحدة للاستقبال ، ومطبخ . ولكن بدون حمّام أو بيت خلاء في الداخل . إلا أنّه بدا لي قصراً منيفاً بالنسبة إلى الـ « إيزبا » التي عرفتها في روسيا القديمة . وبدا نظيفاً ومرتّباً للغاية .

حدّثوني في « كولخوز لينين » ، ونحن نتفقّد الأبقار والخنازير المؤصلة ، ومخازن القمح ، وغيرها — حدثوني عن الخراب الذي أنزله النازيون بمزرعتهم ، وعن مكان قريب يدعى « بابيي يار » جمع فيه النازيون نحواً من ٥٥،٠٠٠ شاب

وشابة وأعدموهم رمياً بالرّصاص ، ودفنوا البعض منهم قبل أن تفارقه الحياة . . .

لم يكن بدّ ، ونحن في عاصمة أوكرايينا ، من زيارة المتحف الجميل الذي أقامته الجمهورية لآثار شاعرها الأكبر والأشهر « تاراس شفتشنكو » . فهذا الشاعر الذي وُلد في أوائل القرن الماضي قِنّاً في مزرعة تضمّ ٥٨،٠٠٠ من الأقنان، ويملكها رجل واحد يدعى « انكلكارت » — هذا الشاعر كان له الفضل الأكبر في إحياء اللغة الأوكراينية وخلق أدب أوكرايني مناضل . فقد استلفتت مواهبه الغزيرة التي تكشّفت في سنّ مبكرة انتباه بعض معاصريه من مشاهير الكتّاب والفنانين الروس . فتنادوا لنصرته وإعتاقه من ربقة مالكه . وباعوا بالمزاد العلني لوحةً فنيّة درّت عليهم ٢٥٠٠ روبل . وبهذا المبلغ ابتاعوا حريّة زميلهم من « انكلكارت » ! . .

حكاية شفتشنكو كحكاية الكثير من الشعراء والكتّاب والفنانين الروس الذين كانت لهم الجرأة أن يتعشقوا الحرية ، وأن يجاهروا باسمها ، وأن يعطفوا على الشعب في عهد القياصرة : اضطهاد ، ونفي ، وتشريد ، وسجن ، وفاقة ، ومرض . إلاّ أن هذه كلّها ، بدلاً من أن تطفىء الشعلة الربّانيّة في قلوبهم ، كانت الزّيت يُسكب على تلك الشعلة . وإلاّ فكيف تأتّى لشاعر كتاراس شفتشنكو أن يترك فوق الألف من الرسوم

التي رسمها – وبعضها بالزيت – والمئات من الرسائل والقصائد التي كان منها أن أضرمت الثورة في قلوب مواطنيه ؛ وأن أذكت فيها حُبّ أوكرايينا حُبّاً يكاد يبلغ درجة العبادة ؟ وأنت ترى هذه الرسوم ، وهذه الرسائل والقصائد ؛ معروضة عليك بطريقة جدّ جذّابة ، وإلى جانبها تماثيل ورسوم كثيرة للشاعر صنعها له البعض من معاصريه أو الذين جاؤوا بعده .

في كييف ، مثلما في موسكو ولينينغراد وباقي المدن والدساكر الروسية ، حركة بناء لا تنقطع . فالقوم ناشطون في كل مكان إلى ترميم ما يمكن ترميمه من المباني والمساكن التي جارت عليها الحرب ، وإلى تشييد الجديد . فالسكان في ازدياد ، ونموّ الحركة الصناعية والزراعية والثقافية في اطّراد . فلا بدّ من مساكن جديدة ، ومصانع جديدة ، ومعاهد جديدة . والذي حققه الاتحاد السوفيتي من هذا القبيل ؛ وفي عشرة أعوام ، يكاد يبدو معجزة من المعجزات .

پولتاڤا :

تملّكني شعور غريب عندما وجدتني في المدينة التي عرفتها لأول مرّة منذ نصف قرن بالتمام ، والتي زرعت فيها أربع سنوات وبعض السنة من سني شبابي . فكانت كريمة معي منتهى الكرم ، وأخصب زرعي فيها غاية الخصب . والشعور

الذي تملّكني كان شعور الازدواج . لقد كنت واحداً فأصبحت اثنين . إذ إن الفتى الذي كنته منذ نصف قرن كان يمشي إلى جانبي ، غير منظور من أحد سواي . ولو كان له أن يتجسّد لما عرف السائرون معي أنّه عين الإنسان السائر معهم الآن ، وأن الحيرة البادية على وجهه كانت عين الحيرة البادية على وجهي . لقد غابت عن كلينا معالم المدينة القديمة التي عرفناها .

« أين الشارع كيت وكيت ؟ لقد كان الشارع الرئيسي في المدينة . ولـكـم مشيت فيه ذهاباً وإياباً ، وصيفاً وشتاء ! » — أطرح هذا السؤال على الكتّاب الأربعة من پولتاڤا الذين خفّوا إلى استقبالنا مع الفجر في محطة المدينة . فيجيبني أحدهم :

« إنّنا سائرون فيه الآن ، ولكن اسمه اليوم غير ما كان في أيامك . »

فلا أكاد أُصدّق . لقد كان شارعاً أضيق من هذا بكثير . والبنايات عن جانبيه كانت قائمة وقديمة . وهذه البنايات تبدو جميعها جديدة . وكانت أرضه مرصوفة بالحجارة ، وأرصفته من خشب . وأرض هذا من الاسفلت وأرصفته كذلك . ويمضي رفاقي يسردون لي أخبار الضنك والتشريد والدمار التي جاءتهم بها الحرب . وأخبار النهضة البنائية التي جاءت في أعقابها . لقد خلق القوم مدينة جديدة في خلال سنوات عشر .

وخلقوا فيها ومن حواليها صناعات كثيرة . وأصبح سكانها يعدّون ٣٠٠،٠٠٠ نسمة . وكانوا ، قبل نصف قرن ، ٧٥،٠٠٠ لا أكثر .

ثم لا تلبث قافلتنا الصغيرة — وكان نوفيتسكي وساشا في عدادها — أن تبلغ حديقة في وسط المدينة . وللحال ينفرج ثغر رفيقي غير المنظور عن بسمة عريضة ، وتشرق أسارير وجهه فيصيح بي :

« هذه هي حديقة المدرسة الحربيّة ! »

أجل . إنها الحديقة التي بيننا وبين ترابها وأزهارها وأشجارها مودّة ما استطاع نصف القرن أن يقطع وشائجها . فلَكَم حلمنا فيها أحلاماً ! ولكم شهدنا فيها جماعات الشبّان والشابّات يتزلجون على الجليد في الشتاء ! ولكم حملنا إليها هموماً كانت تبدو كما لو أنها مقيمة إلى الأبد ، وأفراحاً كنّا نظنّها بغير نهاية ! ولكنها تغيرت كثيراً — هذه الحديقة . فالأزهار ، والأعشاب ، والأشجار ، والممرات تنعم اليوم بعناية ما كانت لها من قبل . وهذه اللافتات الكبيرة القائمة على جوانب الممرات — ألعلّها تعلن بضاعة . أو تمثيلية في مسرح أو في سينما ؟ لا شيء من ذلك . إنها تحدّث عن كتّاب بولتافا ، والذين أسهموا من رجالها ونسائها في بناء أوكرانيا وبناء الاشتراكيّة . إنها لوحات تقدّم للمتنزّهين معلومات

مقتضبة عن أمورٍ هي في صلب حياتهم . وهكذا يروّضون أفكارهم إذ هم يروّضون أجسادهم .

من الكتّاب الذين تفخر بهم بولتافا « كورولنكو » و « كوتليارفسكي » . أما الأول فكاتب قصصي تعدّت شهرته حدود بلاده . وكان من معاصري غوركي ورفاقه . وأما الثاني فكاتب مسرحي ما قُيّض بعد لمسرحيّاته أن تشقّ طريقها إلى خارج بلاده . وقد أقامت الحكومة متحفاً ممتازاً لكلّ منهما . وقد زرت المتحفين .

كان من حسن ذوق رفاقنا البولتافيين أنهم ، بعد قدومنا بقليل ، راحوا يفتشون في المدينة لعلّهم يعثرون على شخص رافقني أيام دراستي . فاهتدوا إلى واحد وجاؤوني به إلى الحديقة . وكان رجلاً كلّله الشيب . وعندما أطلعني على اسمه تذكرته ، وتذكرت أنّه كان أقدم مني في المدرسة بسنتين . ورحنا نستعيد إلى الذاكرة أيام الدراسة ، وأسماء أساتذتنا ورفاقنا . لقد طوى الموت منهم مَن طوى ، وشتّتت الأقدار من شتّتت ، بحيث لم يبق في بولتافا إلاّه – شوربينسكي . سألت عن المدرسة فعرفت أن البناية التي كانت فيها ما تزال قائمة . ولكنها تحوّلت إلى معهد زراعي . فقلت : هيّا بنا إلى المدرسة ، ودعوني أقودكم إليها .

ها هي « السمنار » بأدوارها الثلاثة الممتدّة مسافة خمسين

متراً وأكثر . ما تبدّل شيء في خارجها إلاّ اللون . لقد كان آجرّها قاتماً فابيضّ ، وها أنا أمام المدخل ، يشدّني رفيقي غير المنظور من يدي ، ويشير إلى الحقيبة الصغيرة في يده وإلى قبّعة القشّ على رأسه ، ولكنه لا يملك الكلام لأن أسنانه تصطك من البرد . فأقول له : هوّن عليك . فنحن اليوم غيرنا في الأمس . أما ترى القوم يحتفون بنا . ويرقبون كل حركة من حركاتنا عند هذا المدخل الذي كان مدخلنا إلى دنيا جديدة منذ خمسين عاماً ؟ أما ترى الشمس تضحك لنا وقد طهّرت السماء من الغيوم ؟ وها نحن ، من يوم قدمنا هذه البلاد ، ما رأينا نهاراً واحداً كلّه شمس ولا غيم . إنّه لاستقبال رائع هذا الذي أعدّته لنا بولتافا المحبوبة . هوّن عليك .

دخلنا البناية فإذا كلّ ما فيها قد تغيّر من الداخل . فحيث كان البهو الكبير تقوم اليوم أعمدة وجدران ما كانت من قبل . تغيّرت غرف الدروس وغرف المنامة . وتغيّر الجوّ . فما أكاد أُحسّ أن هذه الأرض ، وهذه الجدران ، وهذه السقوف تعرفني وأعرفها . ولا بدّ لي من الجهد لأستطيع أن أُلمّ عنها ومنها بقايا رسوم لرفيقي غير المنظور ، وفلول أفكار وأحلام وحركات من أفكاره وأحلامه وحركاته .

تغيّر البهو الكبير ، وتغيرت قاعات الدروس . فهل تغيرت الكنيسة كذلك ؟ لقد كانت لنا كنيسة ضمن المدرسة . وكان

مدخلها من منتصف البهو الكبير . ولـكَم صلّيت فيها مسوقاً إلى الصّلاة بنظام المدرسة القاسي ، لا بدافع من قلبي وروحي . ولكم صلّيت فيها لأن نفسي كانت تشتاق الصلاة . وعلى الأخصّ في عيد الفصح . عندما كان المصلّون يتصافحون ويتبادلون القُبَل حالما يعلن الكاهن : « المسيح قام ! » إي . لقد كان في هاتين الكلمتين ما لا يوصف من البهجة لنفسي . وحسبي منهما بشارة القيامة والغلبة على الموت . ما أعظمك أيها الإنسان ، وما أعظم عنادك في صراعك مع الموت ! وإنّك الفائز في النهاية ، من غير شك .

دخلنا إلى حيث كانت الكنيسة . فإذا نحن في قاعـة للاحتفالات والمحاضرات . وقد قام في صدرها مسرح حيث كان المذبح و « الايقونستاس » . وفي جانب المسرح صورة مصغّرة من الجصّ للينين تقابلها في الجانب الثاني صورة لستالين . فقلت عند هذا المشهد :

— وأيُّ بأس في ذلك ؟ فالقداسة أنواع . ولكلّ زمان قدّيسوه !

ما كان لي أن أودّع بولتافا — ولعله الوداع الأخير — من غير أن أزور « غابة الدير » و « مقبرة الأسوجيين » . فقد كان على مقربة من المدينة ، وعلى رابية عالية ، دير للرهبان من حوله غابة فيها العتيّ من شجر البلّوط وغيره . وكانت

تطيب لنا النزهة في تلك الغابة . إلاّ أنّني وجدت بنايات الدير مهشمة ، ووجدت العمال جاهدين في ترميمها . وأمّا الغابة فتكاد تكون أثراً بعد عين . لأن المدافع حطّمت من أشجارها ما حطمت ، واقتطع النازيون منها ما اقتطعوا وقوداً . فتمنيت لو أنّني لم أعد إليها البتة .

وأمّا « مقبرة الأسوجيين » فتبعد عن المدينة بضعة كيلومترات . وهي كناية عن نصب أقامه الروس للّذين قضوا من الأسوجيين في معركة بولتافا الشهيرة . كان ذلك أيام بطرس الأكبر عندما عنّ للملك الأسوجي كارلوس الثاني عشر أن يغزو روسيّا . فحالفه النصر في البداية وظلّ يطارد الجيوش الروسية المتقهقرة من وجهه إلى أن بلغ جوار بولتافا . وهناك صمد له بطرس الأكبر وهزمه شر هزيمة . وبقي يتعقبه حتّى ردّه إلى بلاده . وإنّك لتعجب لهؤلاء الروس كيف أن الغُزاة اجتاحوا بلادهم مرّة بعد مرة فكانوا في كلّ مرة يقلبون هزيمتهم نصراً ، وتتسع بلادهم وتمتدّ إذ تضيق بلاد غُزاتهم وتتقلّص .

هكذا اجتاح التتر روسيا فاحتلوها ومكّنوا لأنفسهم فيها ، وجلس خاناتهم على عرشها . ولكنهم ، بعد قرنين ، أُكرهوا على التخلي عنها . والشّراذم التي بقيت منهم فيها باتت أقليّة لا شأن لها . واجتاحها نابليون ، وجلس في قصر الكرملين ،

وظنّ أنه بات سيّد القصر والبلاد . وإذا به ، بين ليلة وضحاها ، يغادرها بجحافله ، والخيبة تخيم في قلبه ، والموت يحصد رجاله حصداً . فكان غزوه لروسيا النّذير بأفول نجمه . واجتاحها هتلر ليلقى فيها النهاية المريرة التي لا تزال ماثلة لأعيان هذا الجيل . لكأنّي بها – على رحابة أرضها وصلابة أهلها – مقبرة للغُزاة .

ستالينغراد :

من بولتافا إلى ستالينغراد – من مقبرة الأسوجيين إلى مقبرة الألمان النازيين . ويا لهولها مقبرة !

« إنّ خيلنا تشرب من الڤولغا » . هكذا أبرق الغُزاة المتهللون إلى سيّدهم في برلين . وما دروا أن ما شربته خيلهم لم يكن غير العار والانكسار والموت الزؤام لها ولهم ، وأنّ المدينة القائمة على ضفة « الڤولغا » ستكون نهاية أفراحهم وبداية أتراحهم .

استقبلنا في المطار سكرتير اتحاد الكتّاب في ستالينغراد ، واسمه « سرغييف » . وهو يبدو ما بين الثلاثين والأربعين . ضئيل الجسم ، بشوش الوجه ، حازم الكلمة ، حادّ النظر . وقد قال لي فيما بعد ، وبشيء من الاعتزاز : إنّه ابن فلاّح ، ويدرّس في مدرسة ثانوية ، وإن مجموعة من أقاصيصه للأولاد

قد قُبلت للنشر وطبع منها زهاء أربعين ألف نسخة ، وإنه يُعدّ للنشر كتاباً آخر ومن عيار أكبر ، ويأمل أن يلاقي الرضى والنجاح .

طال بنا الطريق من المطار إلى « مدينة ستالين » — أو هكذا خُيّل إليّ من شدّة شوقي إلى إلقاء نظرة على المدينة التي غيّرت مجرى الحرب ومجرى التاريخ البشري . فلكم قرأنا عن المعارك الضارية التي دارت فيها من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت ، بل ومن غرفة إلى غرفة . حتّى دخل في روعي أنها لن تنهض من تحت أنقاضها إلاّ بعد عشرات السنين ، وأنني سأسير فيها بين تلال من ركام الأخشاب والحجارة التي كانت في ما مضى مساكن آهلة بالحياة ، ومعامل تهدر آلاتها بغير انقطاع . وكيف لا يكون كذلك والمدينة تمتدّ على مسافة ثمانين كيلومتراً طولاً وبعرض متوسّطه أربعة كيلومترات ؟ أمن المعقول أن يُعاد تعمير مثل هذا المدى في خلال سنوات عشر ؟

وكان أوّل ما أبصرته من المدينة ناحية ازدحمت بالأكواخ الخشبية الحقيرة كالتي يرتجلها المشرّدون من ديارهم عند نزول الكوارث ، والتي تبدو كما لو كانت أوهى من أن تحمي إنساناً من غضب العناصر . ولحظ الرفيق « سرغييف » أنّني كنت أنظر إلى تلك الأكواخ بشيء من الدهشة والألم فقال :

«لن تلبث هذه الأكواخ أن تزول كما زالت ألوف مثلها من قبل . لقد كان علينا أن نؤوي سكان المدينة الأصليين الذين ما إن جلا العدوّ عنها حتّى أخذوا يعودون إليها . وأكثرهم من النساء والعُجّز والأطفال الذين أُكرهوا على مغادرتها . عادوا فما اهتدوا إلى بيوتهم لأنها زالت من الوجود . ولا وجدوا ما يأكلون أو يشربون ، ولا بماذا يتستّرون ويتدفأون . ولكنهم عادوا برغم أن الفصل كان شتاء ، والشتاء كان قارساً للغاية . فقد كان حبهم لستالينغراد أقوى من خوفهم من البرد والجوع . ولو أن سكان المدينة ما زادوا عما كانوا عليه قبل الحرب لهان الأمر إلى حدّ ما . ولكنهم كانوا ثلاثمئة ألف فأصبحوا اليوم سبعمئة ألف . فتأمّل فداحة مشكلة السكن التي كان على المدينة أن تواجهها . وقد تغلبنا عليها في عشر سنوات . وسترى بأُمّ عينك ما لست أستطيع وصفه لك بلساني . »

وما هي إلاّ دقائق قليلة حتّى غابت عنّا الأكواخ الخشبية ورحنا نشهد بنايات ضخمة ومداخن عالية . وكلها جديد . لقد عادت معامل ستالينغراد أعظم حجماً ، وأكثر عدداً ، وأوفر إنتاجاً مما كانت عليه قبل الحرب . وعاد كل معمل يبني مساكن لعماله تتوافر فيها جميع أسباب الراحة . وبين المعامل ما يشبه المنافسة من هذا القبيل . وها نحن نبلغ قلب المدينة فلا نرى بيوتاً مهدّمة ، وجدراناً فرغت نوافذها من الخشب

والحديد والزجاج فبدت كالمحاجر في الجماجم . بل نبصر بنايات حديثة ، وشوارع منفرجة ، وساحات فسيحة ، وحدائق ضاحكة . فأين الخراب الذي تركته الحرب ؟ لقد حوّلته اليد النشيطة ، والعزيمة الصلبة ، والفكر المدبّر عماراً وحياة . والفندق الفخم الذي نزلنا فيه خير شاهد على ذلك .

كان من الطبيعي ، ونحن في ستالينغراد ، أن تستأثر أخبار المعركة ومشاهدها بقسم من وقتنا . فزرنا « متحف الدفاع » حيث يتعرف الزائر إلى تاريخ المدينة منذ تأسيسها في القرن السادس عشر وإلى الأسلحة التي استُعملت في الدّفاع عنها ، ويرى مختلف الهدايا التي انهالت عليها من أطراف الأرض ، ومنها السيف الثمين الذي قدّمه لها الملك جورج السادس الإنكليزي . ومن المتحف ذهبنا بمعية دليلة روسية إلى « تلّ ماماي » (مامايف كورغان) خارج المدينة . و « ماماي » هو أحد الخانات التتر الذين غزوا روسيا . وقد دعي التلّ باسمه . وهذا التلّ بعينه كانت له أهمية بالغة في معركة ستالينغراد ، فتارة يحتلّه الألمان ، وطوراً يستردّه الروس . وكانت دليلتنا في منتهى اللطف والبراعة وهي تبيّن لنا خطوط المعركة . ومما قالته لنا إن الأرض في تلك الجهات كانت مكسوّة بشظايا القنابل بمعدل مئتي شظية وأكثر للمتر المربع . ولم يفت دليلتنا ، من بعد تل ماماي ، أن تمضي بنا إلى « بيت

بوبوف » في المدينة . وهو البيت الذي دافع عنه صف ضابط اسمه « بوبوف » مع حفنة من رجاله طوال خمسين يوماً . وقد عجز الألمان عن احتلاله . فكان له فضل كبير في كسب المعركة .

ومن المشاهد المؤثّرة حقّاً مشهد الفيلم السينمائي الذي استطاع الروس أن يلتقطوا فيه جوانب من المعركة . وقد دام عرضه علينا ساعة ونصف الساعة . ولكم تمنيت لو يراه كلّ كبير وصغير من أبناء الأرض . لعلهم تنعصر قلوبهم مثلما انعصر قلبي ، وتتقزّز نفوسهم مثلما تقزّزت نفسي من الحروب وأهوالها وهمجياتها التي لا توصف . والذين أخذوه كانوا جدّ بارعين في انتقاء المواقف والمشاهد . وعلى الأخصّ في نهايته ، إذ يعرضون عليك مشهداً لـ « الموسار » في برلين يطوف بهم هتلر موزعاً الصلبان الحديدية على بعض الضبّاط . وعلى الأثر يعرضون عليك مشهداً للصلبان الخشبية فوق مقابر الألمان في ستالينغراد . أو يطرحون على الشاشة صورة عرض عسكري رائع في برلين . تليها صورة الأسرى الألمان في ستالينغراد يمشون نصف حفاة في الثلج وقد جُرّدوا من سلاحهم ، واشتدّ بهم البرد والجوع . وارتسمت على وجوههم المذلّة والكآبة . حتى لتكاد تبكي لحالهم . وتسألهم — في قلبك : « ما الذي جاء بكم من دياركم القصية إلى هذه الديار

لتلقوا مثل هذا المصير ؟ ألعلّكم كنتم تعساء هناك وجئتم تفتشون عن السعادة هنا ؟ » ويبقى سؤالك بغير جواب . وهل للحرب – وهي الجنون المطبق – أن تجيب بما يستطيع المنطق أن يقبله والعقل أن يفهمه ؟ !

لئن تكن معركة ستالينغراد الجاذب الأهمّ الذي يجذب السيّاح إلى المدينة ، فإنها لم تكن كذلك عندي . بل كانت « الڤولغا » الأهمّ . والفولغا ، كما هو معروف لدى الجميع ، نهر . والنهر في العربية مذكّر ، وكان عليّ أن أتكلّم عن « الفولغا » بصيغة التذكير . لكنّ الروس أعطوها صيغة التأنيث ، في حين أعطوا غيرها من بعض أنهارهم الشهيرة صيغة التذكير ، مثل « الدنيبر » و « الدّون » و « الينيسي » وغيرها . أمّا لماذا رأى الروس أن يجعلوا بعض أنهارهم ذكوراً وبعضها إناثاً فمن المرجّح أن ذلك يعود إلى شعور باطنيّ نحو هذا النهر أو ذلك . ولست أستغرب تأنيثهم لنهر « الفولغا » . فهي عندهم « فولغا الأمّ » و « فولغا المرضعة » و « فولغا المطعمة » . ولها في أغانيهم ، وفي آدابهم ، وفي تاريخهم أبعد الأثر . ولست أشكّ في أنّ القدماء منهم – قبل أن تنصّروا – كانوا يعبدونها . فلا نهاية للخيرات التي تحملها إلى الساكنين في حوضها . ناهيك بما لها من أهمية في الدّفاع عن سلامة البلاد .

تقوم في وسط الفولغا ، مقابل ستالينغراد ، جزيرة رمليّة ،

تشطرها شطرين . وهذان الشطران يعودان فيلتقيان عند آخر الجزيرة . وقد قيل لي إن مخاضة النهر في أيام الفيضان تتسع إلى مسافة خمسة كيلومترات . أما في الصيف فتضيق إلى نصف تلك المسافة . وكان من حسن ذوق « سرغييف » ، ولم أخفِ عنه عظيم إعجابي بالنهر ومحبّي له ، أن دبّر لي ولرفيقي « ساشا » نزهة فيه على ظهر باخرة نهرية انتهت بنا إلى قناة (فولغا – دون) . وهي قناة حديثة وَصلت ما بين النهرين . ولأن الدون أعلى من الفولغا فقد جعلوا في القناة ثماني عشرة (حبسة) ترتفع الباخرة القاصدة الدون من واحدة منها إلى الأخرى . وتنخفض القاصدة من الدون إلى الفولغا في حركات معكوسة . وهذه (الحبسات) مبنية بطريقة هندسيّة غاية في الدقة . وقد اكتفينا بأن اجتزنا واحدة منها لنعود من هناك إلى التمثال الهائل القائم عند مدخل القناة .

إنه تمثال لستالين ما أظن أن في الأرض تمثالاً يضاهيه ضخامة . فهو من اليشب ويبلغ علوّه ٢٦ متراً . ويبلغ قطر القبعة الحربية التي يحملها ستالين في يده أربعة أمتار . أما القاعدة التي يقوم عليها فمن « الغرانيت » وعلوّها عن سطح الأرض ٦٨ متراً ، وعمق أسسها تحت الأرض ٦٨ متراً كذلك . إلاّ أنني ، وإن راعني منظر القناة ، ومنظر التمثال ، ومنظر المدينة الجبّارة القائمة على كتف النهر ، فقد راعني فوق

ذلك بكثير منظر النهر عينه .

إيه فولغا ! فولغا الأمّ — فولغا المطعمة ! لقد تكحلت عيني ، بعد طويل شوق ، بندى وجهك الكريم . وها هي نسماتك تلعب بما تبقّى على رأسي من شعر . ويا لهول نسماتك أيام تنقلب عواصف ! وها هو مداك الرهيب يمتدّ إلى قلبي — إلى فكري — إلى خيالي فيحملني إلى أخدار القدرة التي فجّرت منابعك . وجمعت مياهك قطرة إلى قطرة . ومهدت مجراك فتراً فتراً . وأطلقتك رسول خير وحياة لكل من حوائيك وما حواليك . بوركتِ يا فولغا . بوركت يا أُمّ البركات ! ما أنا بالغريب عنك ، وإن جئتك من جبال جرد في بلاد قصيّة . وهل عندك ما يمكن ، أم مَن يمكن ، أن يكون غريباً ؟ أوَلستِ من الأرض وللأرض ؟

ما شاقني أن أزور معمل التراكتورات الشّهير في ستالينغراد ، ولا أي معمل سواه . وشاقني أن ألقي نظرة على الأعمال الجارية في السدّ الكهرمائي الهائل الذي يبنونه على الفولغا بالقرب من المدينة . والذي سيكون جسراً يصل الضفتين بالإضافة إلى ٢٬٢٠٠٬٠٠٠ كيلواط من القوة الكهربائية التي سيولدها . لذلك قطعت النهر برفقة « سرغييف » إلى حيث الحفريات والآلات الضخمة التي تقوم بها . إنه لمشروع جبار تقوم به الدولة السوفيتية . ولكن سرغييف خفّف من دهشتي بدهشة أكبر منها ، عندما أخبرني أن الدولة تقوم

في سيبيريا بمشروع أضخم من هذا بكثير حيث ترجو أن تقيم سدّاً على أحد الأنهار تكون القوة الكهربائيّة الّتي سيولّدها ٥،٠٠٠،٠٠٠ كيلواط !

انتقلنا من السدّ إلى مدينة حديثة في جواره تدعى « فوبلحسك » — أي مدينة الفولغا . والسدّ هو الذي تسبّب ببنائها . فلولاه ، ولولا كثرة العاملين فيه ، لما كانت المدينة . وهي جديدة بكل ما فيها — بشوارعها ، وأبنيتها ، ومدارسها ، وحدائقها ، وملاهيها ، ومستشفياتها — حتّى بسكانها البالغ عددهم ٣٠٠،٠٠٠ نسمة . وقبل سنوات قليلات كانت أرضها قفراً حتّى من النبات والحيوان ! لقد بنتها الدولة للعمال ، وعلى أحدث طراز . وعن غير قصد مني وجدتني ، وأنا أتجول في المدينة ، أسأل نفسي : « تُرى لو كان مثل هذا السدّ يُبنى في بلد رأسمالي ، حيث المضاربة بالأطيان حلال وعين الحلال ، وقامت بجانبه مثل هذه المدينة ، أما كان التّراب فيها يباع بالمثقال ؟ أما كانت الأجور فيها تطاول السحاب ؟ » أمّا هنا فلا شيء من ذلك . فلا مَن أثرى من شراء الأرض وبيع الأرض ، ولا من ارتفاع الأجور الّتي جعلتها الدولة ضمن طاقة العامل على الدفع لأنها تعرف طاقته على الكسب .

ودّعت ستالينغراد . ولكنني ما ودعت الفولغا . فما أزال حتّى اليوم في سحر من جبروتها ، وسخائها ، وجمالها ، وجلالها ، ومداها .

في موسكو ثانية

كان مرافقي « ساشا » قد حدّثني غير مرّة عن ابنته الوحيدة وعمرها سبع سنوات ، وعن شوقه إليها بعد أن طال غيابها عند جدّتها في الجنوب . وما إن بلغنا موسكو من ستالينغراد ، وقبل أن يستقرّ بنا المقام في فندق « موسكفا » ، حتى أخذ التلفون وراح يعالج أرقامه . فظننته يطلب اتحاد الكتّاب ليخبرهم عن عودتنا . ولكنه صاح فجأة بأعلى صوته : « هذا أنت يا عفريتة ؟ ! » والتمعت عيناه ، وطفح وجهه بالبشر . فما عاد يدري بأيّ أسماء التحبّب ، وبأي العبارات ، يخاطب ابنته . لقد ماع قلبه في صدره وكاد يطفر من عينيه . وللحال اعتذر عن عدم تمكّنه من تناول العشاء معي ووعد بأن يأتيني في الغد . فعذرته فرِحاً لفرحه . وكيف لا أعذره وهو الوالد المشتاق إلى ابنته وزوجته ؟ الأبوّة تبقى الأبوّة . والأمومة تبقى الأمومة — لا فرق بين شيوعي ورأسمالي ، ومتمدّن وهمجي . فما أجهل القائلين بالعكس ! وما أقسى قلوب

العاملين على تفسيخ عالم فيه أُبوّة وأمومة ، وعلى تقتيل الآباء والأمهات ، والبنين والبنات ! . .

في صباح اليوم التالي من عودتي إلى موسكو تناولت طعام الفطور وحدي في مطعم الفندق . وهو مطعم فخم وفسيح يتّسع لألف وخمسمائة زائر . وعند العشاء كان يمتلىء حتى لا تجد فيه كرسيّاً فارغاً . وأكثر النزلاء كانوا من السيّاح والوفود القادمة إلى الاتحاد السوفيّي من شتى أقطار الأرض . وكان الندل الذي يخدمني شابّاً وسيم الوجه وبشوشه . ولكم أدهشه أن يسمعني أُخاطبه بلغة بلاده . وعندما عرف أنني درست في روسيا منذ نصف قرن سألني إذا كنت قد وجدت فرقاً بين ما كانت عليه البلاد في ذلك الزمان وبين ما هي عليه اليوم . فقلت :

« أجل . الفرق عظيم جدّاً . لقد تحسنت بلادكم كثيراً . »

فعلّق بالكثير من الرضى على جوابي بقوله :

ـ الحمد لله . الحمد لله ! قلت :

ـ تحمد الله . ألعلك تؤمن بالله ؟ فجاءني جوابه ، وقد أرفقه بهزّة من كتفيه :

ـ أيوجد إله ؟ أم لا يوجد إله ؟ ـ من يدري ؟ أمّا قولي « الحمد لله » فليس سوى نمط من الكلام رضعناه مع لبن أُمهاتنا . أُمّي مؤمنة . فهي ترسم علامة الصليب ،

وتحتفظ بأيقونة في زاوية من البيت ، وتضيء لها الشموع وتحرق البخور . وتصلّي عن أرواح موتاها . ولكنها قلّما تذهب إلى الكنيسة .

ليس يليق بي أن أختم كلامي عن إقامتي في موسكو من غير أن أسجّل امتناني لوزيرنا المفوّض فيها السيد عبد الله نجار وقرينته . فقد أحاطاني بالكثير من العناية وجمعاني حول مائدتهما بسفير الاتحاد السوفيتي في بيروت السيد كيكتيف الذي اتفق وجوده في موسكو آنذاك ، وبالسيد سولود الذي كان أوّل وزير مفوّض للاتحاد السوفيتي في لبنان ، وبمدير التشريفات في وزارة الخارجية السوفيتية ، وبالسيد مويسييف الذي زار لبنان مع فرقة الـ « بريوزكا » ووضع تقريراً ممتازاً عن الرقص اللبناني وإمكانيّة رفعه إلى مرتبة الرّقص الفنّي العالمي .

كذلك لا بدّ لي من ذكر مواطنتنا العربية الفلسطينية السيدة كلثوم عوده – فاسيليفا التي اختارت روسيا موطناً ثانياً لها . فهذه السيدة المولودة في الناصرة قد درست الروسية في دار المعلمات الروسية ببيت جالا – قرب القدس . وتزوجت روسيّاً يدعى فاسيلييف ، وسافرت معه إلى روسيا حيث لم يطل أن مات . وكانت الحرب العالمية الأولى ، ثم الثورة الشيوعية . فرأت السيدة كلثوم أن بقاءها في روسيا خير لها من العودة إلى

ديارها الأصلية . فالتحقت بالمستشرق كراتشكوفسكي في معهد الدراسات الشرقية بلينينغراد ، وكانت مساعدته حتّى وفاته . ومن بعدها انتقلت إلى معهد الدراسات العربية في موسكو حيث تقوم بتلقين اللغة العربية للراغبين فيها من طلاّب وطالبات ، وحيث تسعى إلى نقل بعض آثارنا الأدبية الحديثة إلى اللغة الروسيّة .

وقد شاءت السيدة كلثوم أن تجمعني برهط من زملائها المستشرقين ومن طلاّب وطالبات معهد الدراسات العربية . وتمّ الاجتماع في دار اتّحاد الكتّاب حيث تحدّثنا طويلاً عن الأدب العربي المعاصر واتجاهاته ومشكلاته . وقد راقني من هؤلاء القوم اهتمامهم الجدّي بلغتنا وآدابها . حتّى إن واحداً منهم — واسمه سلطانوف — قدّم إليّ دراسة مستفيضة وضعها بالروسية عن المشكلات التي تقوم في وجه أدبنا بسبب الاختلاف الفادح ما بين العامية والفصحى .

وقبل مغادرتي موسكو بيومين جاءني من قِبَل مجلّة « الأزمنة الحديثة » (نوفويه فريميا) من يطلب إليّ كتابة مقال عن الشرق العربي . وخيّرني في الكتابة ما بين الروسية والإنكليزية والفرنسية . فاخترت الإنكليزية . وكتبت عن كفاح العرب ضدّ الاستعمار وعن اتجاههم نحو الوحدة حالما لا يبقى في شتّى أقطارهم أثر للاستعمار . وقلت إنّهم

سيحقّقون تلك الوحدة . ولكنني ما تكهّنت عن الزّمان الذي تمّ تلك الوحدة فيه .

في الصباح الباكر من الخامس والعشرين من آب كانت الطائرة تشقّ بنا طريقها إلى براغ ، آناً بين الغيوم ، وآونة فوق الغيوم . وكنت أحاول جمع أفكاري عن البلاد التي أمضيت فيها واحداً وعشرين يوماً . والتي أخذت معالمها تتقهقر عني ساعة بعد ساعة . فما كنت أنتهي إلاّ إلى نتيجة واحدة : إنها بلاد شاسعة — شاسعة . وغنية — غنية . وقوية — قوية . وهي تعمل بحرارة ما فوقها حرارة ، وإيمان ما بعده إيمان على تعمير بيتها ، ورفع مستوى سكانها ، ونشر دينها الأرضي في الأرض . ولذلك فهي تريد السلم قبل كلّ شيء . ولا تطمع في أيّ مغنم من أيّ حرب . ولكنها ، إذا حوربت ، فلن تُقهر .

السلم والصليبية ضد الشيوعية

هذه الصليبية العنيفة ، الجامحة تقوم بها اليوم دول كبيرة وصغيرة ضدّ الشيوعية — ترى أيكون نصيبها من النجاح فوق ما كان نصيب سالفاتها في التاريخ ؟ وإذا هي لم تكبح من جماحها فإلى أين تنتهي بنا ؟

قلت من قبل إن الشيوعية « دين أرضي » . وعنيت بذلك أنها دين يقصر همّه على الإنسان وحاجاته المادية والعقلية والاجتماعية ، ويسعى إلى سدّ تلك الحاجات سعياً يشترك فيه الجميع — كلٌّ على قدر طاقته ، ويأخذ من نتاجه كلٌّ على قدر حاجته . وهو إن اختلف عن الأديان السماويّة ففي تقدير مصدر الإنسان ومآبه ، والمسؤولية المترتّبة عليه تجاه قوة ، أو قوى ، غير التي ينطوي عليها كيانه . فالمقارنة بينه وبين الأديان السماويّة — ولو من حيث نشأته وتطوّره وامتداده — أمر طبيعي وجدّ منطقي .

ها هي المسيحية — وأكتفي بها مثلاً من بين الأديان

المعروفة في الأرض لأنّ معظم الجبهة المناهضة للشيوعيّة من الدول المسيحية : ماذا كان تاريخها ؟

لقد كان – أول ما كان – أن هاج اليهود وماجوا لمجرّد قيام إنسان منهم وفيهم بدعوة أوجسوا منها خيفة على دينهم وتقاليدهم والنظم الاقتصادية والاجتماعية التي ارتضوها لأنفسهم أجيالاً طويلة . فما انفكّوا يقاومون ذلك الإنسان حتّى انتهوا إلى تعليقه على خشبة بين لصّين . ثمّ انفرطوا من حواليه متهلّلين بنصرهم وانسحاقه . ولكنهم أفاقوا بعد حين ليعرفوا أنهم بصلبهم المسيح لم يصلبوا المسيحية .

ومن بعد اليهود قامت رومة العاتية تناصب المسيحيين العداء ، فتملأ بهم السجون ، وتجعلهم مساخر للناس ، وطعاماً للأسود والنار . وهكذا قضت على آلاف المسيحيين . ولكنها لم تقضِ على المسيحية .

واشتدّ ساعد المسيحية ، وامتدّ نفوذها في الأرض حتّى باتت أوروبا بأجمعها تدين بها . واتفق أن قام في الجزيرة العربيّة دين جديد . وكُتب لهذا الدين أن ينتشر شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، وأن يصبح مهدُ المسيحية في يده وتحت مطلق تصرّفه . وعنّ لأوروبا المسيحية أن تنتزع ذلك المهد من قبضته ، فقامت بحملاتها الصليبية المشهورة ، وبعد مئتي سنة من القتال وجدت أنها قد قتلت آلاف المسلمين ولكنّها لم

تقتل الإسلام .

وفي الأجيال الوسطى أخذت تظهر في الكنيسة المطمئنة إلى نفوذها الأرضي والسماوي حركات خشيت منها الكنيسة على سلطانها وعقيدتها . فكانت دوائر التفتيش . ولكن تلك الدوائر ، برغم كلّ ما اشتهر عنها من تيقّظ وقساوة ، ما استطاعت أن تسدّ السبيل على لوثر ، وكالفين وغيرهما من رجال التجدّدِ الكنسي . ولَكَم حاولت الكنيسة ، منذ نشأتها ، أن تقضي على الاتجاهات الجديدة التي حسبتها مغايرة لعقيدتها . فكانت النتيجة هذه الشيع الكثيرة المنتشرة اليوم في أقطار العالم المسيحي وكلها يدّعي أنه الوحيد الذي يعرف المسيح حقّ المعرفة ويسير على هدي تعاليمه .

والذي يبدو لي هو أن حظّ الصليبية ضدّ الشيوعية لن يكون خيراً من حظّ الصليبية التي شنّها اليهود ، ومن بعدهم الرومان ، ضد المسيحية . ولا تلك التي شنتها المسيحية على الإسلام . ولا تلك التي قامت بها الكنيسة ضدّ الذين خرجوا من أبنائها على تقاليدها . فلو أنّ أعداء الشيوعيّة استطاعوا أن يقهروا الاتحاد السوفيتي الذي هو حامل لوائها ، وأن يمحقوا الكرملين الذي هو حصنها الأكبر ، لما قهروا بذلك الشيوعيّة ولا محقوا بذورها ، فهذه البذور قد انتشرت في أقاصي الأرض ، ولن يتمّ لهم محقها حتى وإن أحرقوا جميع مؤلفات ماركس ولينين

وغيرهما من أساطين الشيوعية الدولية . أفما علّمهم تاريخهم أن سياسة الضغط والاضطهاد سياسة تحفر قبرها بظلفها ؟ لأنها أبداً تشدّ من عضد المضطهَد بدلاً من أن تفتّ فيه . ومن شأن الضغط أن يزيد في تماسك المضغوط عليه ومقاومته بدلاً من أن يعمل على تفرقته وتفكيكه . وهذا القول ينطبق على أعداء الشيوعية وعلى الشيوعية بالسواء . فالجانبان ضاعت عليهما أمثولة التاريخ من هذا القبيل ، ما دام كل منهما يركن إلى الضغط والاضطهاد في نشر مبادئه وفي الدفاع عن نفسه .

يقول أعداء الشيوعية إن بذورها لا تنبت وتخصب إلاّ حيث ينبت ويخصب الجهل والفقر والظلم والمرض وغيرها من الآفات التي تفتك بالمجتمعات البشرية فتجعل منها فريسة للخوف والقلق والاضطراب . ولو أنهم أحسنوا التفكير لردّوا جميع تلك الآفات إلى آفة واحدة . ألا وهي الجهل . فالجهل وحده هو الوكر الذي فيه تبيض وتنقف ، ومنه تنطلق جميع أوجاع الناس وأوصابهم ومشكلاتهم .

والجهل الذي أعنيه ليس جهل القراءة والكتابة ، أو جهل هذا العلم وذلك الفنّ من علوم الناس وفنونهم . بل جهل النظام الكوني ومقام الإنسان فيه . وعندي أن لا قيمة لأي عمل نعمله ، أو فكر نفكره ، أو نيّة ننويها ، أو شهوة نشتهيها ؛ لا قيمة لعلومنا وفنوننا ، ولا لزراعتنا وصناعتنا ،

ولا لسياستنا واقتصادنا ، ولا لأيّ دين أو فلسفة من أدياننا وفلسفاتنا إلاّ على قدر ما تدنينا من معرفة النظام الكوني ومن غايته منّا وغايتنا منه . فمجرّد اعترافنا بوجود النظام يعني اعترافنا بوجود غاية من ورائه . وإلاّ لما كان نظاماً . إذ كيف يمكن أن يكون للدم الجاري في جسدي نظام وأن لا تكون له غاية في جسدي ، ولجسدي غاية فيه ؟ أم كيف يمكن أن يكون للأرض نظام في دورانها حول الشمس ولا تكون هنالك غاية للشمس في الأرض وللأرض في الشمس ؟

وإذن فالغاية من وجودنا هي أن نعرف نظام وجودنا لنتمّ به ، ولنطاوعه فنسعد ، بدلاً من أن نخالفه فنشقى . وهذا النظام قد سلّحنا بالسلاح الضروري لمعرفته: بالعقل الممحّص؛ والوجدان الذي يقيم ميزاناً دقيقاً للقيم الجماليّة والخلقية ؛ والخيال الذي ينفذ أحياناً في مثل لمحة الطرف إلى حيث لا ينفذ العقل في سنوات وأجيال ؛ والإرادة التي تشقّ الطريق للعقل والوجدان والخيال . إلاّ أنّنا ما نزال حديثي العهد بهذا السلاح . وقليل جداً هم الذين استطاعوا منّا أن يهتدوا إلى كل ما فيه من قوى عجيبة وأسرار غريبة ، فلا يستعملوه إلاّ لخيرهم وخير الناس . أما السواد الأعظم فلا تزال حاله مع ذلك السلاح الرهيب حال الولد يلعب ببندقية سريعة الطلقات ، فلا ينفكّ يعالجها حتّى يقضي على نفسه — وقد يقضي على

بعض رفاقه – برصاصة من رصاصها .

أليس أن الحكمة تقضي ، والعقل يقضي ، والضرورة تقضي ، ما دمنا جميعنا نجهل النظام ، ونتوجع ونتعذب ونموت من جراء جهلنا له ، أن يقول واحدنا للآخر : أنت جاهل ، يا أخي ، وأنا جاهل . وكلانا يشقى بجهله . فتعال نشنها حرباً مشتركة – حرباً شعواء – على الجهل ، جهلنا . عسانا إذا تعاون عقلك وعقلي ، وقلبك وقلبي ، وساندت إرادتك إرادتي لا نعدم الحيلة للتغلب على عدونا في النهاية . ونحن متى تغلبنا على الجهل تغلبنا على الفقر ، وعلى الظلم ، وعلى المرض ، وحتى على الموت . إذ ليس غير الجهل يطيق أن يكون في الأرض غني وفقير ، وظالم ومظلوم . ويطيق أن يكون فيها مرض وموت .

بذلك تقضي الحكمة . ويا ليت زعماء النّاس كانوا حكماء ! وبذلك يقضي العقل . وحبّذا لو أن حكام الناس كانوا عقلاء ! وبذلك تقضي الضرورة ، لو أن الذين في أيديهم مقاليد الناس كانوا يفهمون ضرورة غير التي تمليها عليهم اعتبارات سياسية ومصالح اقتصادية قلّما تتعدّى حدود هذا البلد أو ذلك . وهي ، في الغالب ، تخالف النظام ولا تجاريه .

إلاّ أنهم – وأعني حكّام الناس – ما فكّروا يوماً بالنظام الكوني . بل حصروا كل همّهم في نُظُم أقامها الناس للناس.

فحيثما اصطدمت هذه النظم بالنظام الكوني وقفوا بجانبها ضدّه. فكأنها ، في اعتقادهم ، هي النظام الكوني . وحيثما اصطدمت بنظم بشرية أخرى فهناك القلق والخوف والهستيريا . وهناك الصراع المقنّع والسافر ، والبارد والحار ، والذي يطعن القلوب فيهدر دماءها ، والذي يمتصّ دماءها ولا يطعنها بنبلة . فكأن الناس يعتقدون نظمهم من القداسة والمتانة والعدالة والكمال بحيث لا تترك زيادة لمستزيد ، وبحيث أن كلّ تعرّض لها يؤدي إلى انهيارها ، وبالتالي إلى انهيار الكون .

إن النظام البشري الأمثل لم تعرفه أرضنا بعد . والنظم التي أقمناها منذ أول عهدنا بالأرض ، والنظم القائمة اليوم إن هي إلا تجارب لا أكثر . وهذه التجارب لم تبلغ نهايتها بعد . فهي أبعد ما تكون عن الكمال . وإذ ذاك فمن السخف أن نتحزّب لهذه التجربة ضدّ تلك ، ثمّ أن ننساق مع هوانا فنخاصم أنصار أيّ تجربة غير تجربتنا . ولو أن الصراع الذي نشهده اليوم بين الرأسمالية والشيوعية لم يكن غير صراع صبية يبنون أبراجاً من الرمل ثم يختلفون على هندستها لكان لنا أن ننظر إليه ونضحك ملء أشداقنا . فهو في الواقع مهزلة وأيّ مهزلة . ولكنه يغدو مأساة ما بعدها مأساة عندما يهدّد الأرض وسكانها بالدمار والبوار . إن مجرّد التفكير في حربٍ سلاحها البغض والنفاق ، والطّمع والجشع ، والقنابل الذّريّة والهيدروجينية

لممّا يسدل غشاوة على العين ، وينشر الضباب في الفكر والصقيع في القلب ، ويجعل الإنسان يخجل بأنه إنسان . . .

والأدهى من ذلك والأنكى أن تسمع كلا المعسكرين يتغنّى عالياً بالسّلم ، ويعلن بغير انقطاع ودونما ملل تعلّقه به وحرصه على صيانته من الحرب . فالصواريخ المسيّرة ، والقنابل الذرية والهيدروجينية ، والمدرعات والطائرات ، والمدافع والدبابات ، وآلاف الملايين تنفق على الجنود الذين سيستعملونها — كل هذه ليست أدوات للحرب ، بل هي دروع للسلم تقيه غيلة الحرب !.. ألا سحقاً لزمان يستطيع أن «يزدرد» مثل هذا المنطق . وخزياً لعقول تنطلي عليها أمثال هذه المخرقات . فمتى كان السيف غصن زيتون ؟ أو كانت القنبلة المسيّرة حمامة ؟

للحرب عدّتها . وللسلم عدّته . عدّة الحرب المدفع وعدة السلم المحراث .

عدّة الحرب الباب المقفل ، والحدود والسدود . وعدة السلم الباب المفتوح ، والأرض لا حدود فيها ولا سدود .

عدّة الحرب قلبٌ يكره ، ولسان يشتم ، وفكر يمكر ، ويد تجرح . وعين تبصر السيّئات دون الحسنات . وعدّة السلم قلب يصفح ، ولسان يمدح ، وفكر لا يماري ، ويد تؤاسي ، وعين تبصر الحسنات قبل السيّئات .

عدّة الحرب شهوة السلطان ، وشهوة المال ، وشهوة الاستئثار والاحتكار . وعدّة السلم الزهد في السلطان ، والزهد في المال ، والتمتّع بجمالات الكون وخيراته دون الجنوح إلى الاستئثار والاحتكار .

ونظرة تلقيها على عالم أنت فيه اليوم تكفيك لتعرف أنه عالم يُعدّ للحرب عدّتها الكاملة . أما السلم فما أعدّ له أكثر من منبر تتبارى عليه الشعوب لتعلن بألسنتها عظيم تعشقها للسلم ، في حين تعمل بقلوبها وأفكارها في خدمة الحرب .

وكيف يكون سلم في عالم تفشّت فيه عبادة الفلس إلى حدّ أن باتت تهدّد أخلاقه بالانهيار ، وباتت كل عبادة سواها ضرباً من الوهم وتخدير الفكر والوجدان ؟ وعالم انهارت أخلاقه لعالم انحرف عن النظام الكوني . فلا عجب أن تركبه هستيريا الحرب . لأن الحرب ، كالمرض والموت ، من النتائج الحتميّة للانحراف عن النظام .

ويسألني سائل : أليس أنّ الانحراف عن النظام بعض من النظام ؟ فلولا أن النظام الكوني شاء أن تكون لنا قدرة الانحراف عنه إلى جانب القدرة على مطاوعته لما فسح لنا المجال للانحراف عنه . وجوابي : إنّه لكذلك . غير أنّ الانحراف عن النظام ليس إلاّ ليدلّنا على النظام ، مثلما يدل النقيض على نقيضه . ولأنّنا نملك عقلاً يقارن ويستنتج ؛ ولأنّنا نشقى

ونتعذب ونموت نتيجة انحرافنا عن النظام ؛ ثم لأننا لا نحب الشقاء والعذاب والموت ، ونحبّ صفاء العيش والراحة والحياة ، فقد بات لزاماً علينا أن نتجنب كل انحراف عن النظام يؤدي بنا إلى الحرب . وذلك إن يكن فوق طاقة الحيوان ، فليس فوق طاقة الإنسان . إلاّ إذا ارتضى الإنسان لنفسه حياة الحيوان ، ووضع عقله ووجدانه وخياله وإرادته في مرتبة واحدة مع غريزة الحيوان .

أما كفى الإنسان حرباً أنه يناضل بغير انقطاع ضدّ كلّ ما يؤذيه من الطبيعة وعناصرها ؟ أما كفاه حرباً أنّه يكافح كفاح المستميت ضدّ السدود التي تحصنت خلفها أسرار نفسه وألغازها ، وأسرار الكون وألغازه ؟ حسبه الجهل عدوّاً ، وحسبه الموت جزاءً من عدوّه .

ومَنذا يستطيع أن ينصر الإنسان في حربه مع الجهل غير إنسان مثله ؟ وهل من قيمة لمدنياتنا وحضاراتنا إلاّ من حيث هي سجلاّت لانتصاراتنا في حربنا المشتركة ضدّ الجهل ؟ فإذا نحن محوناها عدنا القهقرى إلى الغابات والكهوف حيث ابتدأنا نضالنا الطويل ، المرير . وإذا نحن انصرفنا عن محاربة الجهل إلى محاربة بعضنا البعض فقد مكـّنّا لعدوّنا منا ، وتنازلنا عن شرفنا الأكبر — شرف الانتساب إلى الإنسان ؛ وعن مهمتنا الكبرى — مهمّة الكشف عن كلّ ما نجهل ، التسلّط على كلّ ما يتسلّط علينا .

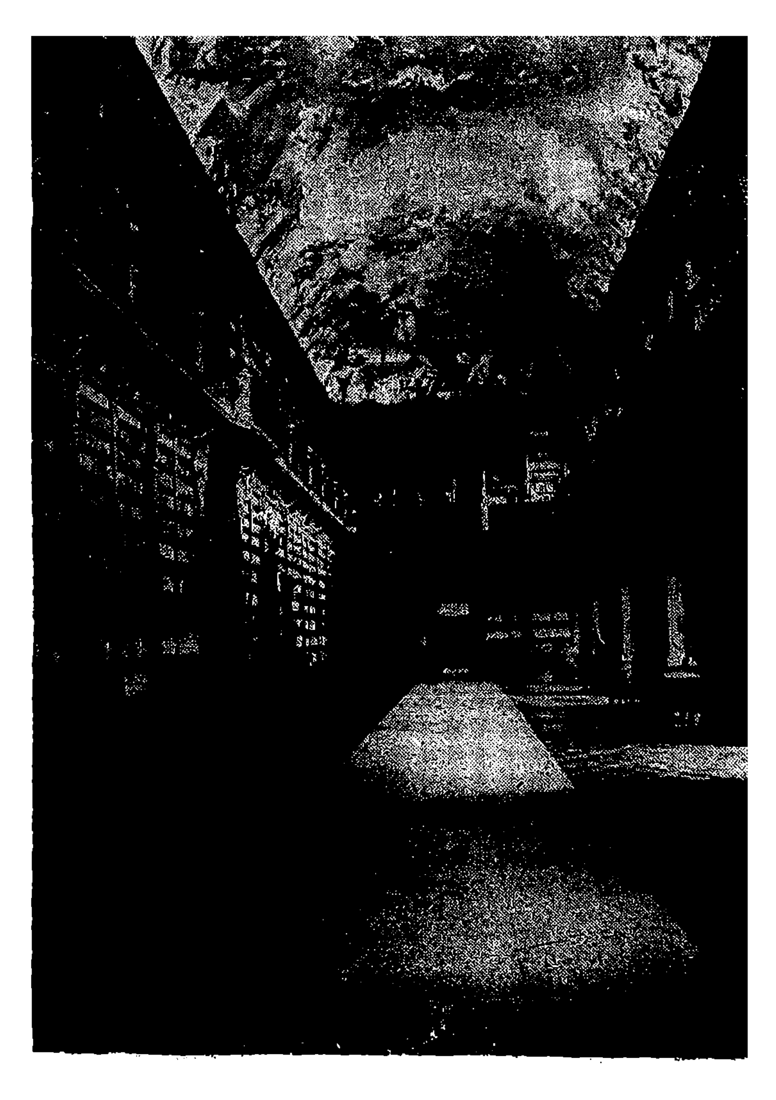
سيأتي يوم تبدو فيه جميع انتصاراتنا الغابرة والحاضرة هزيلة وتافهة بالنسبة إلى ما سنحققه من انتصارات . وتبدو نزاعاتنا حول الشيوعيّة والرأسمالية نزاعات صِبيةٍ حول خرزات ملوّنات . فلا تلك ولا هذه تصلح أن تكون الهدف الذي سنقف عنده مطمئنين . إن هما غير مرحلتين في طريقنا الشائك ، البعيد . ومن الإثم أن نحبس في أيّ منهما جهود الناس أجمعين . ومن الكفر أن نريق في سبيل أيّ منهما دم إنسان واحد . فكيف بدماء الآلاف والملايين ؟

إنما الإنسان هو الجوهر الباقي . أما أعماله فأعراض تزول . إلاّ ما كان منها درجات في السلّم المؤدّي إلى المعرفة وإلى الحرية — حتى من سلطة الموت .

فافسحوا للإنسان المجال ليبني سلّمه . ولا تدينوه بهفوة يهفوها هنا . أو بعثرة يعثرها هناك . إذ ليس منكم مَن لا يهفو ويعثر . ولو أنّكم كنتم كاملين لما كنتم رأسماليين وشيوعيين . ولما دان أحدكم أخاه ، أو رفع سيفه في وجه جاره . وأحوج ما تحتاجون إليه اليوم قليل من التفاهم ، وقليل من التقارب ، وقليل من التعاون ، وقليل من التسامح . وكثير كثير من المحبة . بذلك يقضي وجودكم على سطح أرض واحدة ، وتحت سماء واحدة . وبذلك يقضي الوجدان الحيّ الذي شرّفكم به النظام السرمديّ . وبذلك يقضي النظام السرمدي .

الفهرس

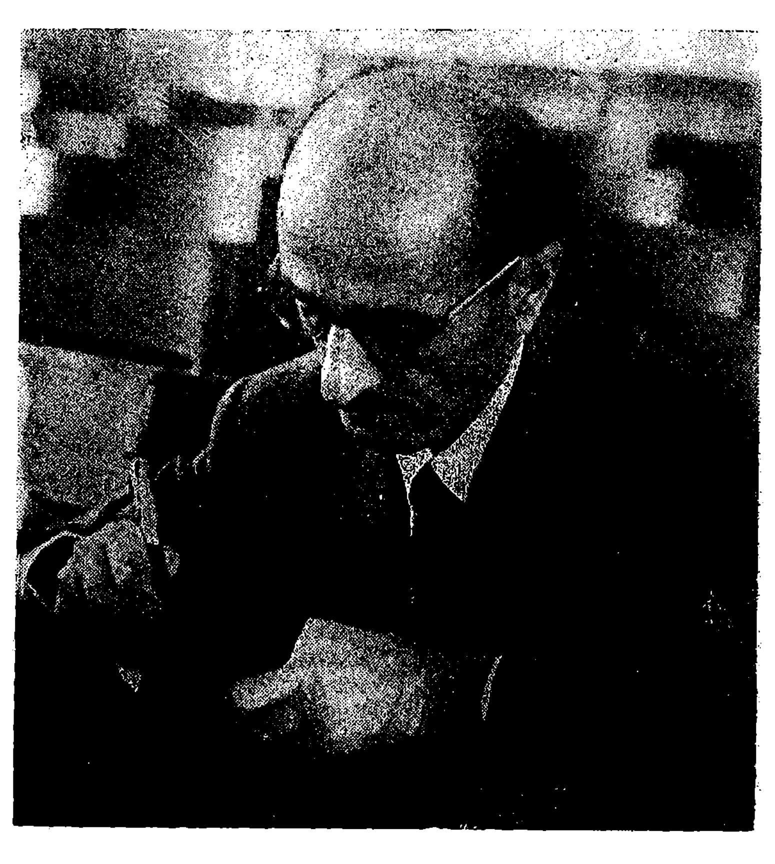
مقدمة	٧
أبعد من موسكو ومن واشنطن	١١
الشيوعية والإلحاد	٢٠
الشيوعية والحرية	٣٥
القوة الثالثة	٤٩
علاقتي بروسيا	٦١
في روسيا	٧١
روسيا في أميركا	٨٩
روسيا في لبنان	١٠٤
في الطريق	١٢١
يومان في براغ	١٣٢
في كعبة الشيوعية	١٤٤
المدن التي زرتها	١٦١
في موسكو ثانية	١٨٩
السلم والصليبية ضد الشيوعية	١٩٤



القاعة الكبرى في متحف الأدب التشيكوسلوفاكي في براغ



المؤلف (في الوسط) مع نفر من الكتاب الأوكرانيين أمام مدخل « السمنار »



المؤلف يدون بعض مذكراته في قاعة الدروس التي كانت
في ما مضى كنيسة « السمنار »



على ظهر باخرة نهرية في الفولغا
(المؤلف إلى اليسار مع الكاتب الستالينغرادي سرغيف)

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
الأوثان
كرم على درب
لقاء
صوت العالم
كتاب مرداد
مذكرات الأرقش
ومضات (شذور وأمثال)
النور والديجور
في مهب الريح
دروب
النبي
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون ١/٣
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
نجوى الغروب
من وحي المسيح
أحاديث مع الصحافة
رسائل

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve
Other Stories.

MIKHAIL NAIMY

Beyond Moscow and Washington



أبعد من موسكو ومن واشنطن

... إذا كان للأمم الحية أن تزدهي بعباقرتها وأن تباهي بفلاسفتها وشعرائها وكتابها فقد حق لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا العصر.

ميخائيل نعيمه مدرسة انسانية فريدة، ومذهب ناصع من أنبل مذاهب الفكر الإنساني، العربي والعالمي.

"أبعد من موسكو ومن واشنطن" هو الكتاب الذي وضعه المؤلف إثر زيارة للاتحاد السوفياتي بدعوة من جامعة الكتاب في موسكو. وقد ذهب فيه الى أبعد بكثير من تفكير موسكو وواشنطن في القضايا التي تشغل بال العالم اليوم وتقسمه الى معسكرين. ومن أحرى منه وهو الذي درس في روسيا وفي اميركا، وخبر الحياة فيهما عن كثب، بالكتابة عن نمطين من اسلوب العيش والتفكير، وبالنقد والتحليل والتجاوز.

من منطلقه الفلسفي يرسم ميخائيل نعيمه هنا عالمه الذي هو العالم المثالي، والذي ترسم حدوده ابعد من موسكو ومن واشنطن.

الناشر